طريق تفضيل الصحو على السكر وارتباطه بمراعاة الصوفي لضوابط العقل والشرع محمد بن خفيف الشيرازي نموذجًا

الدكتور
قدري قدري محمد الديب
مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات ببورسعيد

ملخص البحث

طريق تفضيل الصحو على السكر وارتباطه بمراعاة الصوفي لضوابط العقل والشرع "محمد بن خفيف الشيرازي نموذجًا"

قدري قدري محمد الديب
مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

الملخص: تناول هذا البحث تعريف الصحو والسكر عند الصوفية والعلاقة بينهما في الطريق الصوفي، وبَيَّن أن السكر يقع بين صحو قبله وهو صحو الغفلة وصحو بعده وهو صحو المحبة.

وبَيَّن البحث أن للصوفية طريقين في المفاضلة بين الصحو والسكر، طريق تفضيل الصحو على السكر وهو طريق الجنيد ومن سار على دربه، وارتبط هذا الطريق بمراعاة الصوفي لضوابط العقل والشرع، والطريق الآخر هو طريق تفضيل السكر على الصحو وهو طريق أبي يزيد البسطامي ومن نهج نهجه، وقد ارتبط هذا الطريق بصدور الشطح من أصحابه الذي قد يُفهم منه دعاوى تتصادم مع العقل والشرع، كما عرض البحث لأهم رواد طريق تفضيل الصحو على السكر وأدلتهم على هذا الطريق.

وخُتِمَ البحث بالكلام على رائد من رواد طريق تفضيل الصحو على السكر وهو الشيخ محمد بن خفيف الشيرازي، فذكر نبذة مختصرة عنه، ثم عالج قضية تفضيله للصحو على السكر، فأثبت أنه من أهل هذا

الطريق، وأن تفضيله للصحو على السكر ارتبط بمراعاته لضوابط العقل والشرع، حيث أكد على ضرورة تأسيس المريد على علوم الشريعة كحصن له من الوقوع في شطحات مفضلي السكر التي قد يفهم منها الدعاوى الباطلة كالحلول والاتحاد.

الكلمات المفتاحية: الصحو – السكر – العقل – الشرع – ابن خفيف.

The name:Kadry Kadry Mohamad EL Deeb.
Function: Teacher of doctrine and Philosophy at the College of Islamic and Arabic Studies for Girls in Port Said.
University
email: Kadry Kadry.2073@azhar.edu.eg
Research Title: The way to preference awareness over drunkenness and its connection to the Sufi's observance of the controls of reason and Sharia, Muhammad ibn Khafif al-Shirazi as a model.

Abstract

This research dealt with the definition of awareness and drunkenness at Sufism and the relationship between them in the Sufi path, and he explained that the drunkenness falls between the awareness before it, which is the awareness associated with heedlessness about God, and the awareness after it, which is the awareness associated with the love of God.

And the research showed that Sufism has two ways in giving preference to awareness or drunkenness over the other,the first way is the way of prioritizing awareness over drunkenness, which is the way of al-Junayd and those who

followed his path, and this way is linked to the Sufi's observance of the controls of reason and Sharia, and the other way is the way to prefer drunkenness over awareness, and it is the way of Abu Yazid Al-Bastami and whoever followed his path, this path has been linked to the ecstasy of its companions, who make claims from which one can understand their opposition to reason and Sharia, the research also presented the most important pioneers of the way of preferring awareness over drunkenness and their evidences on this path.

The research concluded with a speech on one of the pioneers of the path of preferring awareness over drunkenness, Sheikh Muhammad bin Khafif Al-Shirazi, and he mentioned a brief summary of him, then he addressed the issue of his preference for awareness over drunkenness, and he proved that he is one of the people of this path, and that his preference for being awareness over drunkenness was linked to his observance of the controls of reason and Sharia, where he emphasized the necessity of establishing the

disciple on the sciences of Sharia, as a fortress for him from falling into the ecstasy of those who preferred drunkenness, from whom he may understand false claims such as Incarnation and union.

Key words: Awareness – Drunkenness - Reason – Sharia - Ibn Khafif .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على المبعوث رحمة للعاملين، سيدنا محمد، اللهم صلِّ وسَلِّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سار على دربهم إلى يوم الدين، وبعد/

فإنه لما كانت مرحلة القرنين الثالث والرابع من الهجرة هي أزهى مراحل التصوف الإسلامي فقد طُرحت فيها عدة قضايا على الساحة الصوفية، وصارت محل أخذ ورد وتبلورت الآراء فيها وأضحى لكل رأي فريق يؤيده ويُعرف به.

وقد اتجه التصوف في هذه المرحلة اتجاهين رئيسين هما: اتجاه التصوف السني المحافظ في تصوفه على التمسك بقواعد أهل السنة من عِلْميات وعَمَليات، واتجاه شبه فلسفي شابَ تصوف أصحابه نظريات فلسفية وافدة على البيئة الإسلامية، وقد اختلف صوفية كل من الاتجاهين في تناولهم للقضايا المطروحة على الساحة الصوفية.

ومن بين هذه القضايا "قضية المفاضلة بين الصَحْو والسُكْر"، والصحو والسكر من الأحوال التي تعرض للصوفي في طريقه إلى تحقيق معرفة الله تعالى.

فبينما نهج أصحاب التصوف السني إلى تفضيل الصحو على السكر، فإن أصحاب التصوف شبه الفلسفي ساروا في الطريق المقابل وهو تفضيل السكر على الصحو.

وأصبح عندنا في هـذا الصـدد طريقـان متمايـزان يُنسـب إلـيهما الصـوفية، حتـى يقـال عـن صـوفي مـا: إن طريقتـه في التصـوف تفضـيل الصحو على السكر، ويقـال عـن آخـر: إن طريقتـه تفضـيل السـكر عـلى الصحو.

ولأن طريـق تفضـيل الصـحو عـلى السـكر هـو طريـق التصـوف السني فقد ارتـبط هـذا الطريـق بمراعـاة ضـوابط العقـل والشرـع، عـلى خلاف طريق تفضيل السكر على الصحو الذي ارتبط بالشطحات التـي هي في ظاهرها خروج عن ضوابط العقل والشرع.

ولما كان طريق تفضيل الصحو على السكر هـو طريـق التصـوف السني المتمسك أصحابه بضوابط المعقول والمنقول فإننا بحاجة إلى إبراز هذا الطريق وجمع ما هو متناثر في كتب الصوفية حوله في دراسة مستقلة، وذلك كمحاولة من بين المحاولات التي تهدف إلى إبراز الجانب الإيجابي في التصوف الإسلامي لما نجده على مر تاريخه –خاصة في عصرنا هذا– من تشويه له وتشويش عليه، حيث يقع بين شقي رحى أعدائه من جانب وأدعيائه من الجانب الآخر.

ومن بين رواد طريق تفضيل الصحو على السكر الذين حملوا لواءه بين الصوفية الشيخ الكبير محمد ابن خفيف الشيرازي، هذا الصوفي الذي لم تُوَفَّ تلك القضية عنده حقها من الدراسة بعد[1].

---

(١) لم أقف على من تناول هذه القضية بالدراسة التفصيلية عند الشيخ محمد بن خفيف الشيرازي، فمما وقفت عليه من أبحاث حول شخصية ابن خفيف:

- المقدمة التي أعدتها "أنا ماريا شميل طاري" لترجمة كتاب "سيرة الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي" من الفارسية إلى التركية، وقد اهتمت في هذه المقدمة بابن خفيف في المصادر العربية والفارسية والأوربية، وفي عرضها الموجز لآرائه اكتفت بيان أن ابن خفيف من مفضلي الصحو على السكر، وأن تأثيرات مدرسة بغداد الصوفية خاصة بيئة الجنيد واضحة عليه في هذه القضية. (انظر: سيرة الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي، "المقدمة"، ص٤٨ (ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية "تحت إشراف مجمع البحوث الإسلامية" – القاهرة، ط سنة ١٣٩٧ه – ١٩٧٧م، ترجمها إلى الفارسية: ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازي، أعاد ترجمتها إلى العربية لفقد النص العربي وترجم مقدمتها من التركية: د/ إبراهيم الدسوقي شتا).
- بحث بعنوان "آراء محمد بن خفيف الشيرازي الاعتقادية والصوفية جمعًا ودراسة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة"، إعداد: عبد الله بن عبيد العتيبي، وهو بحث حصل به الباحث على درجة "الماجستير" في العقيدة والمذاهب المعاصرة من جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية، كلية الشريعة وأصول الدين، سنة ١٤٣٩ه، تحت إشراف: أ.د/ عادل أمين فرج،

ومن هنا جاءت هذه الدراسة تحت عنوان:

طريق تفضيل الصحو على السكر وارتباطه بمراعاة الصوفي لضوابط العقل والشرع

محمد بن خفيف الشيرازي نموذجًا

وقد استخدمتُ في هذا البحث المنهج التحليلي الوصفي حيث جمعتُ المادة العلمية الخاصة بموضوع البحث، ووضعتها وضعًا مناسبًا في كل مسألة مطروحة فيه، مع التعليق عليها بالتوضيح أحيانًا، والاستنباط أحيانًا أخرى.

هذا، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن أقسمه إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة:

الرقم الجامعي (٤٣٦٨١٥٣٧٠)، والباحث ركز على موازنة آراء ابن خفيف العقدية والصوفية بآراء مدرسة ابن تيمية، ولم يتعرض البحث لقضية تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر.

- بحث بعنوان "محمد بن خفيف الشيرازي (ت ٣٧١هـ) وآراؤه الصوفية والكلامية دراسة تحليلية نقدية"، إعداد: نبيل جمال المرسي أبو العنين، وهو بحث حصل به الباحث على درجة "الماجستير" في الفلسفة من جامعة المنصورة، كلية الآداب، سنة ٢٠٢٠م، تحت إشراف: أ.د/ إبراهيم إبراهيم ياسين، ولم يأت الباحث في بحثه بشيء فيما يخص قضية تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: وفيه يعطي البحث تصورًا عن معنى الصحو والسكر، وذلك من خلال تعريفهما، والعلاقة بينهما في الطريق الصوفي.

المبحث الأول: طريق تفضيل الصحو على السكر وارتباطه بمراعاة الصوفي لضوابط العقل والشرع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: رواد طريق تفضيل الصحو على السكر.

المطلب الثاني: أدلة طريق تفضيل الصحو على السكر.

المبحث الثاني: محمد بن خفيف الشيرازي نموذجًا لمفضلي الصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نبذة عن محمد بن خفيف الشيرازي.

المطلب الثاني: تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجه الكريم، وأن يكون ذخرًا لي يوم الدين، وصَلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلِّم.

تمهيد:

في هذا التمهيد يعطي البحث تصورًا عن معنى الصحو والسكر، وذلك من خلال تعريفهما، والعلاقة بينهما في الطريق الصوفي.

أولًا: **تعريف الصحو والسكر**:

أ) الصحو والسكر في اللغة:

جاء في معجم "مقاييس اللغة": «(صَحَوَ) الصاد والحاء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على انكشاف شيء من ذلك الصحو، خلاف السكر، يقال: صحا يصحو السكران فهو صاحٍ»[١]، و«(سَكِرَ) السين والكاف والراء أصل واحد يدل على حيرة من ذلك السُكر من الشراب، يقال: سَكِر سُكرًا، ورجل سِكِّير، أي كثير السكر، والتسكير: التحيير في قوله عز وجل: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ [سورة الحجر: جزء من الآية (١٥)]، وناس يقرأونها سُكِرت مخففة قالوا: ومعناه سُحِرت»[٢].

وفي "لسان العرب": «الصحو: ذهاب الغيم، يوم صحو وسماء صحو، واليوم صاحٍ... وأَصْحَت السماء، فهي مُصْحِية: انقشع عنها

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، ج٣ ص٣٣٥ (ط دار الفكر، ط سنة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ت عبد السلام محمد هارون).

(٢) المصدر السابق ج٣ ص٨٩.

الغيم»[1]، و«سكر: السكران: خلاف الصاحي، والسُكْر: نقيض الصحو، والسكر ثلاثة: سكر الشباب وسكر المال وسكر السلطان... وأسكره الشراب، والجمع سُكارى وسَكارى وسَكْرى، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: جزء من الآية (٢)]... التفسير: أنك تراهم سُكارى من العذاب والخوف وما هم بسُكارى من الشراب، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج: جزء من الآية (٢)]»[2].

وهكذا يظهر من المعنى اللغوي لكلمتي "الصحو" و"السكر" أن الصحو هو في مقابل السكر، بحيث إنه يعقبه، فحالات الغفلة والغياب والحيرة التي تحصل من السكر لا تزول إلا بالانتقال منه إلى الصحو.

وهذا المعنى سيُلَاحَظ بصورة واضحة جدًا في معنى السكر والصحو في اصطلاحات الصوفية.

ب) الصحو والسكر عند الصوفية:

إذا كان هدف الصوفية الذي ينشدونه هو الترقي في معرفة الله تعالى حيث يتحرر العبد من كل قيد يقيده عن الوصل بمولاه فيشهد

---

(١) لسان العرب، لابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، ج١٤ ص٤٥٢ (ط دار صادر – بيروت، (ط٣) سنة ١٤١٤هـ).

(٢) المصدر السابق ج٤ ص٣٧٢.

بقلبه أنه "لا إله إلا الله"، وتتحقق له السعادة التي هي ثمرة هذا التوحيد، إذا كان ذلك كذلك، فإنهم في سبيل تحقيق هذا الهدف يسيرون في طريق يطلقون عليه "المقامات والأحوال".

والمقام هو «ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب بما يتوصل إليه بنوع تَصَرُّف، ويتحقق به بضرب تَطَلُّب ومقاساة تَكَلُّف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفِ أحكام ذلك المقام»[1].

والحال هو «معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم....فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله»[2].

---

(١) الرسالة القشرية، للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري، ج٢ ص١٥٣ (ط دار المعارف – القاهرة، ت الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف)، وانظر: الموسوعة الصوفية، للدكتور عبد المنعم الحفني، ص١٢٧٨، ١٢٧٩ (ط مكتبة مدبولي – القاهرة، (ط٥) سنة ٢٠٠٦م)، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، للدكتور رفيق العجم، ص٩١٧:٩٢١ (ط مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، (ط١) سنة ١٩٩٩م).

(٢) الرسالة القشرية ج٢ ص١٥٤، وانظر: الموسوعة الصوفية ص٩٠٣، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص٢٦٧:٢٧٢.

ومن بين الأحوال التي تعرض للسالك وهو في الطريق إلى معرفة الله تعالى حال السكر ويعقبه حال الصحو، فما تعريف كل منهما عند الصوفية؟ وما العلاقة بينهما في الطريق الصوفي؟

بمطالعة أشهر كتب الصوفية والكتب التي اهتمت بتعريف اصطلاحاتهم نجد أن بعض هذه الكتب اتفقت على عبارة واحدة في تعريف الصحو والسكر مبينة أن السكر هو غيبة بوارد[1] قوي، والصحو هو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة[2].

---

(١) الوارد ما يَرِدُ على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد وكذلك ما لا يكون من قبل الخواطر فهو أيضًا وارد، ثم قد يكون الوارد من الحق وقد يكون من العلم، فالواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه، والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني. (انظر: الرسالة القشيرية ج١ ص٢٠٠، ومعجم اصطلاحات الصوفية، لعبد الرزاق الكاشاني، ص٧٣ (ط دار المنار، (ط١) سنة ١٤١٣ه – ١٩٩٢م، ت د/ عبد العال شاهين)، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص١٠٢٠:١٠٢٢.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٧٦، والفتوحات المكية، لمحيي الدين ابن عربي، ج٤ ص٢٥٩، وص٢٦٢ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٠ه – ١٩٩٩م، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين)، والتعريفات، للسيد الشريف الجرجاني، ص١٢٠، وص١٣٢ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٣ه – ١٩٨٣م)، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم، لابن عجيبة الحسني، ص٥٦٤ (ط دار المعارف – القاهرة،

والبعض الآخر من هذه الكتب اختلفت في عباراتها في تعريف الصحو والسكر عن التعريف السابق، ومن هذه التعريفات:

* السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب(١).

* السكر: أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، وهو أن لا يميز بين مرافقه وملاذه وبين أضدادها في مرافقة الحق، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه، والصحو الذي هو عقيب السكر: هو أن يميز فيعرف المؤلم من المُلذ فيختار المؤلم في موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم(٢).

بدون، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله)، وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، ج٢ ص١٦٨ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١ه – ٢٠٠٠م، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص)، والموسوعة الصوفية ص١٠٧٩.

(١) طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبي عبد الرحمن السلمي، ص٣٤٦ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٩ه – ١٩٩٨م، ت مصطفى عبد القادر عطا)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، ج١٠ ص٣٨٦ (ط السعادة بجوار محافظة مصر، ط سنة ١٣٩٤ه – ١٩٧٤م).

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي، ص٨٤ (ط دار صادر – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١ه – ٢٠٠١م، تقديم: الدكتور يوحنا الجيب صادر).

* السكر والغلبة عبارة صاغها أرباب المعاني للتعبير عن غلبة محبة الحق تعالى، والصحو عبارة عن حصول المراد[1].

* السكر: استيلاء سلطان الحال، والصحو: العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال، فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاحٍ، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب[2].

* السكر: سانح قدسي للنفس يؤدي إلى إبطال النظام عن الحركات، والصحو: هو الرجوع عن هذه الحالة[3].

---

(١) كشف المحجوب، لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري، ج٢ ص٤١٤ (ط المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠٠٧م، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل).

(٢) عوارف المعارف، لشهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي، ص٥٠٤ (ط مكتبة الإيمان – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م، ت الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، والأستاذ الدكتور محمود بن الشريف).

(٣) الألواح العمادية "كلمة التصوف، اللمحات"، لشهاب الدين السهروردي، ص١٦٦ (ط منشورات الجمل – بيروت - بغداد، (ط١) سنة ٢٠١٤م، ت الدكتور نجفقلي حبيبي).

❁ السكر: حيرة بين الفناء والوجود في مقام المحبة الواقعة بين أحكام الشهود والعلم؛ إذ الشهود يحكم بالفناء، والعلم يحكم بالوجود[1]، والصحو: صفو الشهود عن البقية، فإن السكر مؤذن بالبقية[2].

❁ السكر: الحيرة والهيبة عند مشاهدة جمال المحبوب، فإن العقل عندها يصير مغلوبًا ويرتفع التميز من البَيْن، ومن غاية المحوية لا يعلم ما يقول[3].

❁ السكر: سقوط المتمالك في الطرب، وهو من مقامات العشاق، وزلت فيه أقدام غير أولي التمكين، والصحو: ارتفاع هذا الحكم[4].

هـذا، والمدقق يجد أن هـذه التعريفات للسكر والصحو وإن اختلفت عباراتها إلا أنها تدندن حول معنى واحد مفاده أن السكر حالة تعتري الصوفي بسبب وارد قوي من الله تعالى يأخذه من عالم الإحساس والعقل إلى الغيبة عنهما، حيث تكون محبة الله تعالى غالبة عليه فلا يشهد سواه عز وجل، أما الصحو فهو ارتفاع هـذه الحالة بحيث يستصحب

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية ص٣٥٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٧.

(٣) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ج٢ ص١٢٨.

(٤) روضة التعريف بالحب الشريف، للسان الدين ابن الخطيب، ص٦٧٣،٦٧٤ (ط دار الثقافة، (ط١) سنة ١٩٧٠م، ت محمد الكتاني).

غلبة محبة الله تعالى وعدم شهود سواه لكن مع وجود عقله وإحساسه، فمع إدراكه للمحسوسات والمعقولات هو غير مشغول عن استغراقه في مشاهدة أنوار الجلال.

ويفرق السراج الطوسي[1] بين الصحو والسكر من ناحية وبين الغيبة والحضور من ناحية أخرى مبينًا أن معناهما قريب غير أن الصحو حادث والحضور على الدوام، كما أن الصحو والسكر أقوى وأتم وأقهر من الغيبة والحضور.

ويلفت نظرنا إلى أن "الغشية" تختلف عن السكر في أن نشأة السكر ليست من الطبع، وعليه فلا يتغير عند وروده الطبع والحواس،

---

(١) هو أبو نصر السرَّاج، عبد الله بن علي الطوسي الزاهد، شيخ الصوفية، وصاحب كتاب "اللمع في التصوف"، روى عن جعفر الخلدي، وأبي بكر محمد بن داود الدقي، قال الذهبي: «كان المنظور إليه في ناحيته في الفُتُوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة»، وقال السخاوي: «كان على طريقة السنة»، وتوفي في رجب عام ٣٧٨هـ. (انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ج٤ ص٤١٣ (ط دار ابن كثير – دمشق – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ت محمود الأرناؤوط)، والأعلام، لخير الدين الزركلي، ج٤ ص١٠٤ (ط دار العلم للملايين، (ط١٥) سنة ٢٠٠٢م).

بينما الغشية نشأتها ممزوجة بالطبع يتغير عند ورودها الطبع والحواس وتنتقض منها الطهارة، كما أن الغشية لا تدوم أما السكر فيدوم[1].

ويذكر القشيري[2] أن في كون السكر أقوى من الغيبة تفصيلًا، حيث إن «صاحب السكر قد يكون مبسوطًا[3] إذا لم يكن مستوفيًا في

---

(١) انظر: اللمع، لأبي نصر السراج الطوسي، ص٤١٦، ٤١٧ (ط مكتبة الثقافة الدينية، ط سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ت الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود)، وراجع: الموسوعة الصوفية ص١٠٧٩.

(٢) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري، الأستاذ أبو القاسم القشيري الملقب بزين الإسلام، صاحب الرسالة القشيرية، كان فقيهًا بارعًا أصوليًا محققًا متكلمًا سنيًا محدثًا حافظًا مفسرًا متفننًا نحويًا لغويًا أديبًا كاتبًا شاعرًا مليح الخط جدًا شجاعًا بطلًا له في الفروسية واستعمال السلاح الآثار الجميلة، أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه وقدوة وقته وبركة المسلمين في ذلك العصر، أخذ عن ابن فورك علم الكلام، والتصوف عن أبي علي الدقاق، والفقه عن أبي بكر محمد بن بكر الطوسي، توفي بنيسابور سنة ٤٦٥هـ، له غير الرسالة مؤلفات منها: "التيسير في التفسير"، و"لطائف الإشارات". (انظر: طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، ج٥ ص١٥٣:١٦٤ (ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط٢) سنة ١٤١٣هـ، ت د/ محمود محمد الطناحي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو)، والأعلام ج٤ ص٥٧).

(٣) المبسوط هو المتلبس بحال "البسط" وهو حال في مقابل حال "القبض"، يقول السراج الطوسي: «"القبض" و"البسط" حالان شريفان لأهل

سكره، وقد يُسقط إخطار الأشياء عن قلبه في حال سكره، وتلك حال المتساكر الذي لم يستوفه الوارد فيكون للإحساس فيه مساغ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة، فربما يكون صاحب السكر أشد غيبة من صاحب الغيبة إذا قوى سكره، وربما يكون صاحب الغيبة أتم في الغيبة من صاحب السكر إذا كان متساكرًا[1] غير مستوفٍ»[2].

المعرفة، إذا قبضهم الحق أحشمهم عن تناول القوام والمباحات والأكل والشرب والكلام، وإذا بسطهم ردهم إلى هذه الأشياء وتولى حفظهم في ذلك، فالقبض حال رجل عارف ليس فيه فضل لشيء غير معرفته، والبسط حال رجل عارف بسطه الحق وتولى حفظه حتى يتأدب الخلق به». (اللمع ص٤١٩، وانظر: الرسالة القشيرية ج٢ ص١٥٦:١٥٨، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص١٤٣:١٤٧).

(١) يُعَقِّب صاحب "جامع الأصول في الأولياء" على أن القول بأن من السكر ما هو أضعف من الغيبة فيقول: «ومنهم من قال: إن من السكر ما هو أضعف من الغيبة، وليس بسديد لأن ذلك لا يسمى سكرًا، فالحاصل أن السكر هو الغيبة العظيمة، أما الغيبة الضعيفة فهي ليست بسكر بل هو انتشاء وتساكر». (جامع الأصول في الأولياء، لأحمد النقشبندي الخالدي، ص٢٩٦ (ط مؤسسة الانتشار العربي – بيروت، (ط١) سنة ١٩٩٧م، ت أديب نصر الله).

(٢) الرسالة القشيرية ج١ ص١٧٦، وانظر: الموسوعة الصوفية ص١٠٣٤.

وإنما كان السكر – إذا قوي– أتم وأقهر من الغيبة لأن الغيبة قد يكون سببها الرغبة أو الرهبة أو الخوف أو الرجاء[١]، بينما السكر لا يكون سببه إلا المكاشفة[٢] بنعت الجمال، لأنه طرب الروح وهيام القلب ولا

---

(١) الرغبة قريبة من الرجاء، وكذا الرهبة قريبة من الخوف، والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا العبد الشيء طلبه، فالرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق والرغبة سلوك على التحقيق، أما الفرق بين الخوف والرهبة فهو أن الخوف هرب من المكروه والرهبة هي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، ج١ ص٥٠٨، وج٢ ص٥٥،٥٦ (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط٣) سنة ١٤١٦ه – ١٩٩٦م، ت محمد المعتصم بالله البغدادي)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٣٠٣ و٣٥٨ و٣٦٦ (ط دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، (ط١) سنة ١٤١٢ه، ت صفوان عدنان الداودي).

(٢) المكاشفة هي حضور القلب بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتَطَلُّب السبيل ولا مستجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب، وعلامتها دوام التحير في كنه العظمة، والمكاشفة هي مرتبة وسط بين المحاضرة والمشاهدة، فالمحاضرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بَعْدُ وراء الستر وإن كان حاضرًا باستيلاء سلطان الذكر، والمشاهدة هي حضور الحق من غير بقاء تهمة، فالمحاضرة ابتداء ثم المكاشفة ثم المشاهدة.

يكون ذلك لأهل الرغبة والرهبة والخوف والرجاء[1].

ثانيًا: العلاقة بين الصحو والسكر في الطريق الصوفي:

من الجدير بالذكر في هذا المقام – مقام العلاقة بين الصحو والسكر في طريق الصوفية- بيان أن كلًا منهما يتنوع إلى نوعين، يطلعنا على هذا الهجويري[2] في "كشف المحجوب"، فيذكر أن:

(انظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٤، وكشف المحجوب ج٢ ص٦١٨، وعوارف المعارف ص٥٠٥).

(١) انظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٧٦، وجامع الأصول في الأولياء ص٢٩٦، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي، ولد في "غزنة" في أواخر القرن الرابع الهجري، رحل إلى عدة بلدان والتقى بعدد من مشايخ الصوفية من أشهرهم الإمام القشيري، توفي في لاهور سنة ٤٦٥هـ على الراجح، من أشهر مؤلفاته كتاب "كشف المحجوب"، ويُنسب له مما هو مطبوع كتاب "كشف الأسرار"، وله مؤلفات أخرى كثيرة لكنها مفقودة، منها: كتاب "الفناء والبقاء"، وكتاب "في شرح كلام الحلاج". (انظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، ج١ ص٦٩١ (طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، ط سنة ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان)، والترجمة التفصيلية التي كتبتها د/ إسعاد عبد الهادي قنديل لترجمتها لكتاب "كشف المحجوب"، ص٣٩:١٠٦).

- أحد نوعي السكر هو السكر بشراب المودة، والنوع الآخر سكر بكأس المحبة، أما سكر المودة فهو معلول لأنه يتولد من رؤية النعمة، وسكر المحبة بلا علة لأنه يتولد من رؤية المنعم، فكل مَنْ يرى النعمة يراها على نفسه فيكون قد رأى نفسه، وكل من يرى المُنعم يراه به فلا يرى نفسه.

- وأما الصحو، فأحد نوعيه صحو الغفلة، والنوع الآخر صحو المحبة، وصحو الغفلة هو الحجاب الأعظم، وصحو المحبة هو الكشف الأبين[١].

ثم يعقب على نوعي كل من السكر والصحو قائلًا: «فالمقرون بالغفلة سكر ولو كان صحوًا، والموصول بالمحبة صحو ولو كان سكرًا»[٢].

وهذا يعني أن المتلبس بصحو الغفلة حيث يعي المحسوس والمعقول وهو مع هذا غافل عن الله تعالى منشغل بالدنيا وملذاتها هو في حقيقة الأمر في سكر حيث غَيَّبَتْهُ الدنيا وحجبت قلبه عن التوجه للحق وشغلته بالأوهام، أما المتلبس بسكر المحبة فهو في الحقيقة صاحٍ إذا قارناه بالمتلبس بصحو الغفلة؛ إذ شاهد المتلبس بسكر المحبة أنوار الحق

---

(١) انظر: كشف المحجوب ج٢ ص٤١٧، وراجع: الموسوعة الصوفية ص١٠٣٤، و١٠٧٩.

(٢) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٧.

واستغرق فيها وأفاق من انشغال القلب بالمحسوس والمعقول وزال عنه ما قد يغشيه عن مشاهدة الأنوار.

ومن هنا يُعلم أن الصحو والسكر الحاصلين للعارف بالله هما صحو المحبة وسكرها.

إذا تبين هذا فلنعلم أن الصوفية حين يصفون الطريق الذي عبروا منه فإنهم يقولون بأن السكر حال يعتور عليه صحوان: صحو قبله هو تفرقة محضة وليس من الأحوال في شيء[١]، وصحو بعده ويسمى "الصحو الثاني" و"صحو الجمع" و"الصحو بعد المحو"، وهو حال يصير مقامًا.

والسالك لا يستغني عن السكر ما لم يخلص عن الصحو الأول، فإذا خلص إلى الصحو الثاني صار غنيًا عن السكر[٢].

وهذه التفرقة بين السكر والصحو واعتبار السكر محطة موصلة إلى الصحو هي تفرقة تزول عند الصوفية في مقام التوحيد، فحينئذ لا صحو ولا سكر، وفي هذا يقول القشيري: «والسكر والصحو يشيران إلى

---

(١) هو صحو الغفلة المشار إليه آنفًا في كلام الهجويري.

(٢) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٩٦٢، وراجع: الرسالة القشيرية ج١ ص١٦٨، ١٦٩، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤، و١٠٧٩.

طرف من التفرقة[1]، وإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم فصفة العبد الثبور والقهر، وفي معناه أنشدوا:

إذا طلع الصباح لنجم راح   تساوى فيه سكران وصاح

قال الله تعالي: {**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**}[سورة الأعراف: جزء من الآية (١٤٣)]، هذا مع رسالته خر صعقًا وهذا مع صلابته وقوته صار دكًا متكسرًا»[2].

---

(١) وضح هذا الأمر الهجويري حيث ذكر أن «طرفي كلا هذين المعنيين موصولان بأحدهما الآخر، ونهاية أحدهما بداية الآخر، والنهاية والبداية لا تكون إلا في التفاريق». (كشف المحجوب ج٢ ص٤١٧).

(٢) الرسالة القشيرية ج١ ص١٧٧، وانظر: كشف المحجوب ج٢ ص٤١٧،٤١٨، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤، و١٠٧٩.

المبحث الأول
طريق تفضيل الصحو على السكر

المطلب الأول: رواد طريق تفضيل الصحو على السكر:

ظهرت قضية تفضيل الصحو على السكر على ساحة قضايا التصوف الإسلامي مع بداياته الحقيقية وذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين[١]، ذلك الدور من أدوار التصوف الإسلامي الذي برزت فيه عدة قضايا من بينها إن لم يكن أهمها قضية "الفناء في التوحيد"[٢]، والتي لها علاقة وطيدة بالكلام على السكر والصحو، ذلك أن الصوفي في طريقه

---

(١) على اعتبار أن القرنين الأول والثاني الهجريين كانا دور مرحلة الزهد وهي مرحلة سابقة على التصوف بمعناه الدقيق. (انظر: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، للدكتور أبي العلا عفيفي، ص٨٦ (ط دار الشعب – بيروت، بدون)، وصفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور كامل مصطفى الشيبي، ص٢٤ (ط دار المناهل – بيروت، (١) سنة ١٤١٨ه – ١٩٩٧م)، ومدخل إلى التصوف الإسلامي، للدكتور أبو الوفا التفتازاني، ص١٧،١٨ (ط دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة، (٢) سنة ١٣٩٩ه – ١٩٧٩م).

(٢) انظر: في التصوف الإسلامي وتاريخه، لرينولد ألن نيكلسون، ص٧٠،٧١ (ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ط سنة ١٣٦٦ه – ١٩٤٧م، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي)، ومدخل إلى التصوف الإسلامي ص١٠٩، والتصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٨٨.

إلى الله تعالى بعد أن يمر في طريق الفناء بادئًا بفنائه عن الأغيار ومارًا بفنائه عن نفسه فإنه ينتهي إلى فنائه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق[1].

فمن خواص هذه المرحلة من الفناء يعرض السكر، يقول القشيري: «وإذا قيل: فني عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحساس ولا خبر فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه وبالخلق»[2].

ومن الصوفية من فضل هذه الحالة وأعجبه الاستقرار فيها ورأى أنها نهاية الطريق، ولأنها حال سكر غاب فيها صاحبها عن كل شيء فإذا به ينطق بما يرفضه العقل والنقل حيث يُفهم من ظاهره دعاوى من قبيل حلول[3] الخالق

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٧٢.

(٢) المصدر السابق ج١ ص١٧١.

(٣) الحلول هو أن يكون الشيء حاصلًا في الشيء ومختصًا به بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر تحقيقًا أو تقديرًا، والحلول ينقسم إلى سرياني وجواري، فالسرياني عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد فيسمى الساري حالًا والمسري فيه محلًا، والحلول الجواري عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفًا للآخر كحلول الماء في الكوز. (انظر: التعريفات ص٩٢، والكليات، لأبي

بالمخلوق أو اتحاد[1] المخلوق بالخالق.

البقاء الكفوي، ص٣٩٠ (ط مؤسسة الرسالة – بيروت، ت عدنان درويش – محمد المصري).

والحلولية طائفة انتسبت للتصوف، يقول عنهم السراج الطوسي: «بلغني أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى اصطفى أجسامًا حل فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية...والذي غلط في الحلول غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق وبين أوصاف الخلق، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب وإنما يحل في القلوب الإيمان به والتصديق له والتوحيد والمعرفة، وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة صنع الله بهم، لا هو بذاته أو بصفاته يحل فيهم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا». (اللمع ص٥٤١،٥٤٢، وانظر: الموسوعة الصوفية ص٩٢٣،٩٢٤، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص٣٠٥).

(١) الاتحاد هو تصيير الذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعدًا. (انظر: التعريفات ص٨، وهناك تفصيل في معنى الاتحاد انظره في: شرح المواقف، المواقف لعضد الدين الإيجي والشرح للسيد الشريف الجرجاني، ج٤ ص٦٢،٦٣ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م)، والكليات ص٣٦).

والاتحادية هم قوم من المتصوفة ذهبوا إلى أن المنقطع عن الدنيا المتوجه إلى الله قد يتحد مع الله تعالى، وقد عدهم صاحب المواقف من الفرق المخالفة لأهل السنة في أصل "تنزيه الله تعالى عن الحلول والاتحاد". (انظر: شرح المواقف ج٨ ص٣٥).

ومن الصوفية من أدرك أن حالة الفناء هذه ليست نهاية المطاف، بل هناك البقاء بعد الفناء، ففضل هؤلاء الصوفية الصحو على السكر، فـ«حالة الفناء لا تكون على الدوام لأَن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركتها في أمور معاشها ومعادها»[1].

فهذا البقاء بعد الفناء والصحو بعد السكر الذي وُفِّق له هذا الفريق من الصوفية جنبهم الدعاوى الخطيرة التي وقع فيها مفضلو السكر على الصحو.

هذا، وقد عُرِف طريق تفضيل الصحو على السكر بأنه طريق "الجنيديين"، نسبة لأبي القاسم الجنيد[2]، فهو رائد هذا الطريق، في

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٤.

(٢) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي الأصل البغدادي القواريري الخزاز، سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصوف وعلم الأولياء في زمانه، تفقه على أبى ثور وكان يفتى بحلقته وله من العمر عشرون سنة، وسمع الحديث من الحسن بن عرفة، واختص بصحبة السرى السقطي والحارث بن أسد المحاسبي وأبى حمزة البغدادي، قال جعفر الخلدي: «لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد إذا رأيت علمه رجحته على حاله وإذا رأيت حاله رجحته على علمه»، وقال أبو القاسم الكعبي المتكلم المعتزلي: «ما رأت عيناى مثله كان الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة لدقة معانيه والمتكلمون لعلمه»، توفي سنة ٢٩٧هـ، من مؤلفاته: "رسائل" منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد

مقابل طريق "الطيفوريين" نسبة لأبي يزيد طيفور البسطامي[1] الذي يفضل السكر على الصحو[2].

والألوهية، ومسائل أخرى، وله "دواء الأرواح". (انظر: طبقات الصوفية ص١٢٩:١٤٠، وطبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٢٦٠:٢٧٥، والأعلام ج٢ ص١٤١).

(١) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (نسبة لبسطام بلدة بين العراق وخراسان) الزاهد المشهور، ولد سنة ١٨٨ه، كان جده مجوسيًا ثم أسلم، وكان له أخوان زاهدان عابدان أيضًا: آدم وعلي، وكان أبو يزيد أجلهم، سئل أبو يزيد: بأي شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: «ببطن جائع وبدن عارٍ»، وكان يقول: «لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»، وله مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، اشتهر أبو يزيد بالشطح الذي تأوله له كثير من الصوفية كالجنيد والسراج الطوسي، يعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية، وكانت وفاته سنة ٢٦١ه، وقيل: ٢٦٤ه. (انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج٢ ص٥٣١ (ط دار صادر – بيروت، ت إحسان عباس)، والموسوعة الصوفية ص٨٠:٨٦).

(٢) انظر: كشف المحجوب ج٢ ص٤١٣ و ص٤١٩، وتذكرة الأولياء، لفريد الدين العطار، ج٢ ص٢٨،٢٩ وص٣٦ (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط سنة ٢٠٠٩م، ترجمة وتقديم وتعليق: د/ منال اليمني عبد العزيز)، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤، والحياة الروحية في الإسلام ص١٢٧،١٢٨، ومدخل

ويظهـر تفضـيل الجنيـد للصـحو عـلى السـكر مـن وصـفه لآخـر محطات طريق المعرفة بالله تعالى الذي جربـه الجنيـد، حيـث يصـف هـذه المحطة مبينًا أن صاحبها يمر بحال يشعر فيها بأنه «شبح قـائم بـين يديـه (الله تعالى) ليس بينهما ثالـث، تجـري عليـه تصـاريف تـدبيره، في مجـاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده، بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له...بذهاب حسه وحركاته، لقيام الحق له فيما أراده منه، والعلم في ذلك أنه رجع آخر العبد إلى أوله، أن يكـون كـما كـان إذ كـان قبـل أن يكـون، والدليل في ذلك قول الله عز وجـل: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ} [سورة الأعراف: جزء من الآية (١٧٢)]، فمن كان وكيف كان قبل أن يكون؟ وهل أجابت إلا الأرواح الطاهرة العذبة المقدسة بإقامة القـدرة النافذة والمشيئة التامة؟ الآن كان إذ كان قبل أن يكون، وهذا غاية حقيقة توحيد الموحد للواحد بذهاب هو»[١].

ولكن الجنيد وهو يصف الطريـق يبـين في موضـع آخـر أن نهايـة المطاف لم تُبلغ بعد، فهناك بعد هذه الحال – حال "ذهاب هـو"– حـال

إلى التصوف الإسلامي ص١١٦، والأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، لأنا ماري شيمل، ص٧١ (ط منشورات الجمل – كولونيا "ألمانيا"، بغداد، (ط١) سنة ٢٠٠٦م).

(١) رسائل الجنيد، للإمام أبي القاسم الجنيد، ص٦١،٦٢ (ط برعي وجداي – القاهرة، ط سنة ١٩٨٨م، ت د/ علي حسن عبد القادر)، واللمع ص٥٠،٤٩.

أخرى هي غاية الطريق وبها يكون التمكين وإنزال الأشياء منازلها ووضعها مواضعها، وفي هذا يقول: «ثم كان بعد ما لم يكن حيث كان، فهو هو بعد ما لم يكن هو، فهو موجود موجود بعد ما كان موجودًا مفقودًا، لأنه خرج من سكرة الغلبة إلى بيان الصحو، وتَرِدُ عليه المشاهدة لإنزال الأشياء منازلها ووضعها مواضعها لاستدراك صفاته، ببقاء آثاره والاقتداء بفعله، بعد بلوغه غاية ما له منه»[١].

ومن هذا يظهر أن السالك - بحسب تجربة الجنيد الروحية- لو وقف عند حال "ذهاب هو" أو "سكرة الغلبة" كما عبر الجنيد فهو لن ينزل الأشياء منازلها ولن يضعها موضعها، أي إنه لا يكون بمأمن من الوقوع في دعاوى تتصادم مع العقل والشرع في علاقة العبد بالرب، وأن الذي يجنبه هذا هو أن يَعْبُرَ من هذا الحال إلى حال الصحو ويستقر فيه.

وقد كانت نصيحة الجنيد الدائمة لمن تلبس بحال السكر- على الرغم من تأويله لشطحات[٢]

---

(١) المصدر السابق ص٥٨.

(٢) عَرَّف السراج الطوسي الشطح بأنه «عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته». (اللمع ص٤٥٣)، ويعبر ابن خلدون عنه بأنه ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم تستشكل ظواهرها، والناس بإزائها بين مُنْكِرٍ ومُحَسِّن ومتأوِّل. (انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر

بعضهم[1]- هي عبور هذا الحال وعدم الاعتقاد بأن عنده المنتهى، فمن ذلك أنه قال عن أبي يزيد البسطامي: «أما ما وصف من بدايات حاله فهو قوي محكم قد بلغ منه الغاية، وقد وصف أشياء من علم التوحيد

في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي، ج١ ص٦٢٣ (دار الفكر - بيروت، (ط٢) سنة ١٤٠٨ه - ١٩٨٨م، ت خليل شحادة).

وفي موضع آخر يقول: «وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور، فمن عُلِم منهم فضله واقتداؤه حُمِل على القصد الجميل من هذا وأمثاله وأن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله، ومن لم يُعْلَم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضًا، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله، والله أعلم». (العبر وديوان المبتدأ والخبر ج١ ص٦٢٤).

(١) انظر مثلًا في تأويله لشطحات أبي يزيد البسطامي: اللمع ص٤٥٩:٤٧١.

صحيحة، إلا أنها بدايات»[١]، ويقول: «لو أن أبا يزيد – رحمه الله– على عظم إشاراته خرج من البداية والتوسط! ولم أسمع له نطقًا يدل على المعنى الذي ينبئ عن الغاية»[٢].

وحين كتب الشبلي[٣] رسالة يصف للجنيد فيها ما كابده في حال السكر، فرد على رسالته وكتب قائلًا: «أبا بكر، الله الله في الخلق، كنا نأخذ الكلمة فننقشها ونقرظها[٤]، ونتكلم بها في السراديب، وقد جئت أنت

---

(١) اللمع ص٤٥٩،٤٦٠.

(٢) المصدر السابق ص٤٦٧.

(٣) أبو بكر دلف بن جحدر، وقيل: دلف بن جعفر، وقيل: جحدر بن دلف، وقيل: جعفر ابن يونس، وقيل غير ذلك، المعروف بالشبلي، الصالح المشهور الخراساني الأصل البغدادي المولد والمنشأ، ولد سنة ٢٤٧ه، كان جليل القدر مالكي المذهب، وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصلحاء، وكان في بداية أمره واليًا في دنباوند (من نواحي رستاق الري)، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، توفي ببغداد سنة ٣٣٤ه، للدكتور كامل مصطفى الشيبي : "ديوان أبي بكر الشبلي" جمع فيه ما وجد من شعره. (انظر: طبقات الصوفية ص٢٥٧:٢٦٩، وفيات الأعيان ج٢ ص٢٧٣:٢٧٦، والأعلام ج٢ ص٣٤١).

(٤) يقال: قَرَّظ الكتاب أي أظهر محاسنه ومزاياه. (انظر: لسان العرب ج٧ ص٤٥٥، والمعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، ج٢ ص٧٢٨ (ط دار الدعوة، بدون).

فخلعت العذار[1]، بينك وبين أكابر الخلق ألف طبقة، في أول طبقة يذهب ما وصفت»[2].

وقد أخذ الجنيد في الإنكار على الحلاج[3] موقفًا فيه من الشدة والحزم ما لم نجده عند موقفه من أبي يزيد والشبلي، حتى أنه لسبب أو

---

(١) العِذار: عذار الغلام جانب لحيته، وما سال من اللجام على خد الفرس، ويقال خلع فلان عذاره: انهمك في الغي ولم يستحِ. (انظر: معجم مقاييس اللغة ج٤ ص٢٥٥، والمعجم الوسيط ج٢ ص٥٩٠).

(٢) اللمع ص٣٠٥،٣٠٦.

(٣) هو أبو مغيث الحسين بن منصور، وهو من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط والعراق وصحب الجنيد وأبا الحسين النوري وعمرًا المكي والفوطي وغيرهم، ومشايخ الصوفية في أمره مختلفون، رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، وقبله من جملتهم أبو العباس بن عطاء وأبو عبد الله محمد بن خفيف وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي وأثنوا عليه وصححوا له حاله وحكوا عنه كلامه وجعلوه أحد المحققين، وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه، فسجن وعذب وضرب، ثم قتل بباب الطاق ببغداد سنة ٣٠٩ه، من مؤلفاته: كتاب "الطواسين"، و"خلق الإنسان والبيان"، و"الأصول والفروع". (انظر: طبقات الصوفية ص٢٣٦:٢٣٩، ووفيات الأعيان ج٢ ص١٤٠:١٤٦، والأعلام ج٢ ص٢٦٠،٢٦١).

لآخر لم يؤول له شطحاته كما أول لهما[1].

وما يهمنا هنا بيانه لموطن الخطأ الذي وقع فيه الحلاج، يدلنا على هذا ما أورده الهجويري من أن الحلاج حين تبرأ في حال سكره من عمرو

---

(١) سبق ذكر كلام ابن خلدون الذي فسر به سبب عدم تأويل أكابر مشايخ الصوفية – ومنهم بلا خلاف الجنيد- لشطحات الحلاج بينما أولوا شطحات غيره كأبي يزيد البسطامي، حيث قال ابن خلدون: «...فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله وأن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضًا، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله، والله أعلم». (العبر وديوان المبتدأ والخبر ج١ ص٦٢٤).

وذكر بعض الباحثين أن عدم تأويل الجنيد لشطحات الحلاج كان بسبب بغض الجنيد للحلاج لانصرافه عن مشايخه دون استئذان، وتطاوله عليهم في بعض الأحيان. (انظر: شطحات الصوفية، للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص٢٤،٢٥، وص٣٩ (ط وكالة المطبوعات – الكويت، بدون)، والتصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي، للدكتور مجدي محمد إبراهيم، ص٣٢٠:٣٢٣ (ط مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٢٢ه – ٢٠٠٢م).

بن عثمان[1] جاء إلى الجنيد، فقال له الجنيد: «لم جئت؟ فقال: لأصحب الشيخ، قال له: لا صحبة لنا مع المجانين لأنه ينبغي للصحبة الصحة، فقال: أيها الشيخ الصحو والسكر صفتان للعبد ولا يزال العبد محجوبًا عن ربه حتى تفنى أوصافه، قال الجنيد: يا ابن منصور أخطأت في الصحو والسكر، لأن الصحو بلا خلاف عبارة عن صحة حال العبد مع الحق والسكر عبارة عن فرط الشوق وغاية المحبة، وكلاهما لا يدخل تحت صفة العبد واكتساب الخلق، وأنا أرى يا ابن منصور في كلامك فضولًا كثيرًا وعبارات لا طائل تحتها»[2].

فالجنيد بتبنيه لطريق تفضيل الصحو على السكر يقف في وجه هذا التيار الصوفي الذي ارتضى الطريق الآخر الذي إن أحسنا الظن بأتباعه وقلنا بأنهم لا يقصدون ظواهر هذه الدعاوى المتصادمة مع العقل والشرع حيث إنهم سكارى مغلوبون بالمحبة، فإنه لا أقل من أن نقول

---

(١) هو أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله النباجي وصحب أبا سعيد الخراز وغيره من المشايخ القدماء، وهو عالم بعلوم الأصول وله كلام حسن، زار أصبهان وتوفي سنة ٢٩٧هـ ببغداد، وقيل بمكة، من كلامه: «اعلم أن رأس الزهد وأصله في القلوب هو احتقار الدنيا واستصغارها والنظر إليها بعين القلة». (انظر: طبقات الصوفية ص١٦٢:١٦٦، وحلية الأولياء ج١٠ ص٢٩١:٢٩٦، والأعلام ج٥ ص٨١،٨٢).

(٢) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٩.

بأن هذا الطريق قد يُسْتَغل في تمرير العقائد الغريبة عن الإسلام التي لا تراعي العقل ولا الشرع من نحو الحلول والاتحاد وغيرهما تحت غطاء من التصوف.

على أنه يمكن القول بأن الجنيد الذي عُرِف طريق تفضيل الصحو على السكر باسمه هو تبع فيه لأستاذه الحارث بن أسد المحاسبي[1] الذي رُوي عنه ما يفيد شدته على مَنْ يظهر منه أفعال وأقوال في حال سكره قد يُفهم منها اعتقاد صاحبها لعقائد مخالفة للعقل والشرع، وأن هذه الأفعال والأقوال تمثل بابًا تلج من خلاله هذه العقائد الباطلة تحت غطاء من التصوف فتفسد على الناس دينهم، فقد ذكر الهجويري أنه «دخل على الحارث أبو حمزة البغدادي[2] أحد مريديه، وكان رجلًا مستمعًا وصاحب

---

(١) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، وهو شيخ الجنيد وأستاذ أكثر البغداديين، قيل: سمي المحاسبي لشدة محاسبته لنفسه، وهو من أهل البصرة مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ، له مصنفات كثيرة قدرها البعض بنحو مائتي كتاب، وأشهر كتبه "الرعاية لحقوق الله"، وله أيضًا: "مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"، و"كتاب التوهم". (انظر: طبقات الصوفية ص٥٨:٦٣، وطبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٢٧٥:٢٧٨، والأعلام ج٢ ص١٥٣،١٥٤).

(٢) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي البزاز، صحب السري السقطي وبشرًا الحافي، كان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة قبل كلامه في مسجد المدينة،

حال، وكان للحارث ديك يصيح، فصاح في تلك الساعة، فصرخ أبو حمزة، فنهض الحارث وأمسك السكين وقال له: كفرت! وقصد قتله، فوقع المريدون على أقدام الشيخ وأبعدوه عنه، وقال لأبي حمزة: أسلم يا مطرود! فقالوا له: أيها الشيخ لقد عرفناه جميعًا من خواص الأولياء ومن جملة الموحدين، فما سبب شك الشيخ فيه؟ فقال الحارث: أنا لا أشك فيه ولا أنظر إليه بغير الخير ولا أرى باطنه إلا مستغرقًا في التوحيد، ولكن لا ينبغي له أن يفعل شيئًا شبيهًا بأفعال الحلوليين حتى يبدو في معاملته أثر من مقالاتهم، فالطائر الذي لا عقل له ويصيح جريًا على عادته وهواه، لماذا يستمع إليه مع الحق، والحق تعالى غير متجزئ، وأحباؤه لا يطمئنون إلى غير كلامه، ولا وقت[1] ولا حال لهم بغير التسليم له، ولا نزول ولا

وكان عالمًا بالقراءات، وكان من رفقاء أبي تراب النخشبي في أسفاره، وكان أحمد بن حنبل إذا جرى في مجلسه شيء من كلام القوم يقول لأبي حمزة: «ما تقول فيها يا صوفي»، توفي ٢٨٩ﻫ. (انظر: طبقات الصوفية ص٢٢٧:٢٢٩، وحلية الأولياء ج١٠ ص٣٢٠،٣٢١، والموسوعة الصوفية ص٨٧).

(١) الوقت عند الصوفية: ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته فإنه كالسيف يمضي الوقت بحكمه ويقطع، وقد يعنون به: ما هو فيه من الزمان، فالصوفي ابن وقته ويريدون بهذا أنه مشتغل بما هو أولى به من العبادات في الحال قائم بما هو مطلوب به في الحين، وقد يعنون به: ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم. (انظر: الرسالة القشيرية ج١

حلول له في الأشياء، ولا يجوز على القديم الاتحاد والامتزاج، فقال أبو حمزة وقتئذٍ للحارث: أيها الشيخ مهما كنت على صواب في الأصل فإنه ما دام فعلي شبيهًا بفعل أولئك القوم فقد تُبْتُ وأنبتُ»[1].

والظاهر أن المحاسبي ما أراد قتل أبي حمزة، كيف وهو لا يشك فيه ولا ينظر إليه بغير الخير ويرى باطنه مستغرقًا في التوحيد – كما ورد في الحكاية–، لكنه أراد أن يُظهر الشدة على من تلبس بحال السكر وظهرت منه الأفعال والأقوال التي تُفهم على أنها مخالفة للعقل والشرع، وهذا

ص١٥١،١٥٢، وعوارف المعارف ص٥٠٥، والموسوعة الصوفية ص١٣٤٠).

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٠،٤١١ بتصرف يسير، ووردت حكاية شبيهة بهذه في كتاب "حلية الأولياء" وقعت أيضًا لأبي حمزة البغدادي لكن ليس مع الحارث المحاسبي، حيث جاء فيه: «حكى لي عبد الواحد بن بكر: حدثني محمد بن عبد العزيز قال: سمعت أبا عبد الله الرملي يقول: تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه، فبينا هو ذات يوم يتكلم إذ صاح غراب على سطح الجامع فزعق أبو حمزة وقال: "لبيك لبيك"، فنسبوه إلى الزندقة وقالوا: حلولي زنديق، فشهدوا وأُخرج وبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع، هذا فرس الزنديق، فذكر أبو عمرو البصري، قال: ابتعته والناس وراءه يخرجونه من باب الشام فرفع رأسه إلى السماء وقال:

لك من قلبي المكان المصون كل صعب علي فيك يهون». (حلية الأولياء ج١٠ ص٣٢١).

يدل دلالة واضحة على تفضيل الحارث للصحو على السكر، لـذا عقـب الهجويري على هذه الحكاية بقوله: «وهـذا طريـق محمـود جدًا، وطريـق السلامة في الصحو بلا تكسير»[١].

هذا، وإن الاتجاه العام لتصوف المحاسبي – وهو التصوف السني الرافض لكل ما لا يقبله العقل والشرع[٢]– ليؤكد تفضيله للصحو على السكر، وأن أثره لا يُنكر على تلميذه الجنيد الذي سُمِّيَتْ طريقة تفضيل الصحو على السكر باسمه.

ومن أقران الجنيد الذين أُثِر عنهم كلام في تفضيل الصحو على السكر رويم البغدادي[٣] حيث روي عنه ما يفيد مدى تقديره لطريق الصحو وانزعاجه ممن يجعله مع السكر في محل مفاضلة أصلًا، وأن

---

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤١١.

(٢) ممن أبرز تصوف المحاسبي وبين مدى سنيته الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه "أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي" وقد طبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٢م.

(٣) هو رويم بن أحمد بن يزيد، وهو من أهل بغداد من جلة مشايخهم، وكان فقيهًا على مذهب داود الأصبهاني وكان مقرئًا فقرأ على إدريس بن عبد الكريم الحداد مات سنة ٣٠٣ه، من كلامه: «إن الله تعالى غَيَّب أشياء في أشياء غيب مكره في حلمه وغيب خداعه في لطفه وغيب عقابه في كرامته». (انظر: طبقات الصوفية ص١٤٧:١٥١، وحلية الأولياء ج١٠ ص٢٩٦:٣٠١، والموسوعة الصوفية ص٣١٤،٣١٥).

المتلبس بحال الصحو هو المُسْتَأْمَن على المكاشفات الربانية، فقد «سأله أبو جعفر الحداد[١]: أيهما أفضل الصحو أو السكر؟ فانزعج رويم كالمُغْضَب فقال: لا والله أو تهدأ هدوء الصخر في قعور البحار، فإن هدأت استودعك وإن انزعجت طالبك، أما سمعته يقول: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [سورة الأنعام: جزء من الآية (٩٨)]؟ وسأله بعض الناس أن يوصيه بوصية فقال: ليس إلا بذل الروح وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية فإن أمرنا هذا مبني على الأصول»[٢].

وكأنه يشير بترهات الصوفية إلى أولئك الذين يظنون في الشطحات التي تصدر مِن بعض مَن تلبس بحال السكر أنها منتهى الطريق ودليل الوصول في حين أن الوصول الحقيقي للصوفي لا يكون

---

(١) من رؤساء مشايخ الصوفية، وهو من أقران الجنيد ورويم البغدادي، لقي أبا تراب النخشبي، كان شديد الاجتهاد معروفًا بالإيثار، كان يقول: «الفراسة هي أول خاطر بلا معارض، فإن اعترض فيها معارض بشيء يزيل المعنى فليست بفراسة فإن ذلك خاطر أو حديث نفس». (انظر: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٣٩، ٣٤٠، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج١٦ ص٥٩٣ (ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٢ه – ٢٠٠٢م، ت د/ بشار عواد معروف)، وتاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر، ج٦٦ ص١١٠:١١٦ (ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط سنة ١٤١٥ه – ١٩٩٥م، ت عمرو بن غرامة العمراوي).

(٢) حلية الأولياء ج١٠ ص٢٩٧.

إلا بالابتناء على الأصول التي هي مقررات العقول ومقتضيات المنقول، ولا يستقيم بناء إذا أزلنا أصوله التي قام عليها.

ومن رواد طريق تفضيل الصحو على السكر الذين عاصروا الجنيد الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي، وسيعرض له البحث في المبحث الثاني كنموذج لمفضلي الصحو على السكر ظهر عنده الارتباط بين تفضيل الصحو على السكر وبين مراعاة ضوابط العقل والشرع بصورة واضحة.

ومن رواد طريق تفضيل الصحو على السكر في الفترة التي تَلَت الجنيد أبو نصر السراج الطوسي الذي ألف كتابه "اللمع" لِيُدَوِّن فيه أصول التصوف الصحيح[1]، وكان من بين من انتقدهم في كتابه أولئك الذين فضلوا السكر على الصحو المدعين «أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح -عليه السلام-»[2].

---

(١) كما نص على ذلك في مقدمة كتابه حيث قال: «أما بعد فإني استخرت الله تعالى وجمعت أبوابًا في معنى ما ذهب إليه أهل التصوف...وينبغي للعاقل في عصرنا أن يعرف شيئًا من أصول هذه العصابة وقصودهم، وطريقة أهل الصحة والفضل منهم، حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم والمتلبسين بلبسهم والمتسمين باسمهم حتى لا يغلط ولا يأثم». (اللمع ص١٨).

(٢) اللمع ص٥٥٢.

وإذا كان هؤلاء الرواد لطريق تفضيل الصحو على السكر قد سقوا بذرة هذا الطريق الصوفي المراعي للعقل والشرع في أقوال وأفعال صاحبه فإن هذه البذرة قد تولاها بالعناية متصوفة من بعدهم كالسلمي[1]، والهجويري، والقشيري:

- أما السلمي، فهو يؤكد على أن «مقام المنتهى الصحو والتمكين»[2]، وينبه على أن «صحة السكر أن يكون صاحبه محفوظًا في حاله عن ارتكاب محظور أو يجرى عليه ذم من جهة الشرع، ويكون

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابورى، ولد بنيسابور سنة ٣٢٥هـ وتوفي بها سنة ٤١٢هـ، قدم بغداد مرات وحَدَّث بها عن شيوخ خراسان، كان رأسًا في أخبار الصوفية وطبقاتهم وتفسيرهم، بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها: "حقائق التفسير"، و"طبقات الصوفية"، و"رسالة الملامتية". (انظر: تاريخ بغداد ج٣ ص٤٢، وطبقات الأولياء، لسراج الدين ابن الملقن الشافعي المصري، ص٣١٣:٣١٥ (ط مكتبة الخانجي – بالقاهرة، (ط٢) سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م، ت نور الدين شريبه)، والأعلام ج٦ ص٩٩).

(٢) مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السلمي، "ذكر آداب الصوفية"، ج٣ ص٥٥٣، (ط مؤسسه پژوهشي حكمت وفلسفه إيران، تهران – إيران، ومؤسسه مطالعات إسلامي دانشگاه آزاد برلين، برلين – آلمان، (ط١) سنة ٢٠٠٩م، ت نصر الله جوادي ومحمد سوري).

صحوه من السكر إلى المجاهدة، فاذا جرى عليه خرق شرع أو تضييع فريضة فهو بائن عن طرق الحقيقة»[١].

– وأما الهجويري، فقد سبق ذكر قوله: «وطريق السلامة في الصحو بلا تكسير»، وذلك أثناء تعليقه على موقف المحاسبي من أبي حمزة، ويقول الهجويري أيضًا: «وكان شيخي – وهو جنيدي المذهب– يقول: السكر ملعب الصغار والصحو مفنى الرجال، وأنا علي بن عثمان الجلابي أقول موافقة لشيخي – رحمه الله–: كمال حال صاحب السكر هو الصحو، وأقل درجة في الصحو رؤية عجز البشرية، فالصحو الذي يبدو آفة أفضل من السكر الذي هو عين الآفة»[٢].

– وأما القشيري، فقد قال منتقدًا صوفية الشطح: «وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكامه للبشرية»[٣].

---

(١) مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السلمي، "درجات المعاملات"، ج١ ص٤٩٣ (ط مركز نشر دانشگاهي، تهران – إيران، (ط١) سنة١٩٩٠م، ت أحمد طاهر عراقي).

(٢) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٦.

(٣) الرسالة القشيرية ج١ ص١٦.

هذا، وقد أتت بذرة طريق تفضيل الصحو على السكر ثمارها فيما بعد على يد حجة الإسلام الغزالي[١] الذي حذر أشد الحذر من الوقوف عند حال السكر والظن بأنه نهاية الطريق، وجعل الْمُعْتَقِد بهذا من أصناف المغرورين الذين يغترون بالحجب بينهم وبين الله تعالى «وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه، فإنه أيضًا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به، وتتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره إشراقًا عظيمًا، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له، فإذا تجلى نوره وانكشف جمال

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بحجة الإسلام، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، له نحو مائتي مصنف، ولد في الطابران (قصبة طوس بخراسان) سنة ٤٥٠هـ، ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل عند من يقول بتشديد الزاي، أو إلى غزالة (قرية من قرى طوس) عند من يقول بتخفيفها، توفي سنة ٥٠٥هـ، من مؤلفاته: "إحياء علوم الدين"، و"تهافت الفلاسفة"، و"الاقتصاد في الاعتقاد"، و"فضائح الباطنية". (انظر: سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، ج١٤ ص٢٦٧ (ط مؤسسة الرسالة، (ط٣) سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ت مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط)، وطبقات الشافعية الكبرى ج٦ ص١٩١:٢١٦، والأعلام ج٧ ص٢٢).

القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحق، فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلًا عن الشمس، فهو مغرور وهذا محل الالتباس إذ المُتَجَلِّي يلتبس بالمُتَجَلَّى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح   وكأنما قدح ولا خمر»[١].

لذا فإن الحجة الغزالي يحذر من تصوف أصحاب الشطح الذي يصدر من مفضلي السكر على الصحو ويَحْمِلُ عليهم لما في تصوفهم من ضرر على العوام حيث يفتح الباب للبطالة عن العمل وادعاء مَنْ شاء ما شاء من الدعاوى المتصادمة مع العقل والشرع، «ومهما أُنْكِر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال والعلم حجاب والجدل عمل النفس وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن

---

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ومعه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لزين الدين العراقي، ص١٣٢٧ (ط دار ابن حزم – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م).

بمكاشفة نور الحق، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره»[١].

وقد كان للإمام الغزالي بتصوره للطريق على هذا النحو أثره الكبير فيما بعد على جل شيوخ الطرق الصوفية «الذين أعجبوا به وبربطه التصوف بعقيدة أهل السنة وبمنهجه العملي فيه، ولم يخرج مفهوم الطريق عندهم في الجملة عن مفهوم الغزالي له»[٢].

ويمكن القول بأن طريق تفضيل الصحو على السكر الذي سمي بـ"طريق الجنيديين" نسبة لسيد الطائفة الجنيد هو طريق التصوف السني عمومًا الملتزم أصحابه في أقوالهم وأفعالهم بمقررات العقول ومقتضيات المنقول، في مقابل طريق تفضيل السكر على الصحو الذي روي عن أصحابه أقوال وأفعال لا يستقيم ظاهرها مع ميزان العقل والشرع بحيث يرفضها كل سني.

---

(١) إحياء علوم الدين ص٤٦.

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي ص٢٣٥، وانظر: الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، للدكتور عامر النجار ص١٩، ٢٠ (ط دار المعارف – القاهرة، (ط٥)، بدون)، والتصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي ص٥٢٦، ٥٢٧.

المطلب الثاني: أدلة طريق تفضيل الصحو على السكر:

المتتبع لكتب الصوفية التي اهتمت برصد أحوال القوم وما دار بينهم يجد أن مفضلي الصحو على السكر عرضوا وهم بصدد تقرير هذا الطريق الأدلة التي تؤيد طريقهم وتبين ضعف طريق تفضيل السكر على الصحو، ومن هذه الأدلة:

الدليل الأول:

أن مقام الولي العارف بالله تعالى لا يحصل على التمام إلا إذا عبر السالك من السكر إلى الصحو الثاني، لأن الولي خليفة للنبي ووارث له يقوم مقامه، ولما كان النبي دليلًا على الحق يُعَرِّفُ الخلق به ويُعَبِّدُهم له سبحانه، فكذا أولياء الله تعالى ينبغي أن يكونوا أدلة عليه سبحانه آخذين بأيدي الناس إلى رب الناس، فالله تعالى «جعل أولياءه أولياء للعالم، وناط بهم الحل والعقد، وصير أحكام العالم موصولة بهمتهم، فوجب أن تكون آراؤهم أصح الآراء، وقلوبهم أشفق كل القلوب»[1].

ولا يكون الولي دليلًا للخلق على الحق ولا تكون آراؤه أصح الآراء إلا إذا كان صاحيًا من سكره مُثْبِتًا للخلق - مع رؤية نقصهم وفنائهم بجانب بقاء الحق-، ويكون محفوظًا من الزيغ والانحراف عما يقتضيه العقل والشرع فيكون قدوة وإمامًا يُقتدى به في تعريف الخلق بالحق وتعبيدهم له، فالسالك «إِذا غلب عليه الصحو بالحق فبه يصول

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤٦٢.

وبه يقول، قال صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عن الحق: "فبي يسمع وبي ويبصر"[(١)]»[(٢)].

أما من كان متلبسًا بالسكر فإنه يغيب عن عقله بل عن حسه أيضًا «لأن روحانية الإنسان التي هي جوهر العقل لما انجذبت إلى جمال المحبوب بَعُد شعاع العقل عن النفس وذهل الحس عن المحسوس، وأَلَمَّ بالباطن فرح ونشاط وهزة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة، وأصاب السر دهش ووله وهيجان لِتَحَيُّرِ نظره في شهود جمال الحق، وتسمى هذه الحالة سكرًا لمشاركتها السكر الظاهر في الأوصاف المذكورة إلا أن السبب لاستتار نور العقل في السكر المعنوي غلبة نور الشهود، وفي

---

(١) إشارة إلى الحديث القدسي الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة سبحانه: «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها... ». (أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب "الرقاق"، باب "التواضع"، ج٨ ص١٠٥ برقم ٦٥٠٢ (ط دار طوق النجاة "مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي"، (ط١) سنة ١٤٢٢ه، ت محمد زهير بن ناصر الناصر).

(٢) الرسالة القشيرية ج١ ص١٦٣.

السكر الظاهر غشيان ظلمة الطبيعة، لأن النور كما يستتر بالظلمة كذلك يستتر بالنور الغالب كاستتار نور الكواكب بغلبة نور الشمس»(١).

فالمتلبس بالسكر الذي لم يعبر منه إلى الصحو الذي بعده لما لم يراعِ مقتضيات العقل والحس فربما لا يراعي الشرع أيضًا، ولذا علق سيدَ الطائفة الجنيد إمامة الشبلي على أن يكون من أهل الصحو فقال: «الشبلي – رحمه الله– سكران، ولو أفاق من سكره لجاء منه إمام ينتفع به»(٢).

ومن هنا كان الصحو أفضل من السكر، فصاحبه يصح أن يكون إمامًا متبعًا يخلف الأنبياء في تعريف الخلق بالحق وتعبيدهم له سبحانه حيث يتفق تصوفه مع الحق الذي هو مقررات العقول ومقتضيات المنقول، ويغلق هذا الطريق الباب أمام الشطح والدعاوى المصادمة لما كان عليه الأنبياء وسلفنا الصالح الذين أمرنا بالاقتداء بهم.

الدليل الثاني:

ما ذكره الكلاباذي(٣) من أن الصحو الذي هو بعد السكر أتم «لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدري، ويغيب عن

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٩٦١،٩٦٢، وقارن: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ج٢ ص١٢٨، وموسوعة مصطلحات التصوف ص٤٧٠،٤٧١.

(٢) اللمع ص٣٨٢.

(٣) هو أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي، يلقب بتاج الإسلام، كان إمامًا أصوليًا من حفاظ الحديث، تفقه على الشيخ محمد بن الفضل الكمادي البخاري، توفي سنة ٣٨٠هـ من مؤلفاته: "بحر الفوائد" المشهور باسم

وجود التكره، وهذا (أي المتلبس بالصحو بعد السكر) يختار الآلام على الملاذ ثم يجد اللذة فيما يؤلمه بغلبة شهود فاعله، والصاحي الذي نعته قبل نعت السكر ربما يختار الآلام على الملاذ لرؤية ثواب أو مطالعة عوض وهو متألم في الآلام ومتلذذ في الملاذ»[1].

والكلاباذي ههنا وهو في معرض الاستدلال على أفضلية الصحو على السكر يضعنا أمام ثلاث درجات للسالكين:

أولها: الذي لم يجْرِ عليه السكر بعد بل هو صاحٍ، لكنه سالك لا يزال يجاهد نفسه التي تدعوه للدنيا وملذاتها، فيقاسي من الآلام التي يجدها في سبيل تهذيب هذه النفس، وسلواه في هذه المقاساة رؤية الثواب الذي وعد الحق به.

"معاني الأخبار" جمع فيه ٥٩٢ حديثًا، و"التعرف لمذهب أهل التصوف" الذي جمع فيه مذهب الصوفية وأحوالهم، وعرف بطريقتهم وتسميتهم ومعتقداتهم، لذا قيل عن هذا الكتاب: لولا التعرف لما عرف التصوف. (انظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، لأبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، ص١٦١ (ط مطبعة دار السعادة بجوار محافظة مصر، (ط١) سنة ١٣٢٤هـ، عنى بتصحيحه وتعليق بعض الزوائد عليه: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني)، والأعلام ج٥ ص٢٩٥، والموسوعة الصوفية ص٦٠٥).

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص٨٥.

وأوسطها: صاحب السكر الـذي رَوَّضَ نفسـه عـلى تـرك الـدنيا ولذاتها حتى غاب عن نفسه بل غاب عن غيبته عن نفسه، ولم يعد يدري بمكروه ولا مؤلم ولا غيره، فلم يعد له اختيار أصلًا.

وأعلاهـا: المتلـبس بالصـحو بعـد السـكر، فهـذا يـدري بـالمؤلم والمكروه على النفس ويختاره، لكنه لم يعد مكروهًا لديه ولا مؤلمًا، بل إن لذته وسعادته صارت فيه، فقد ذاق طعم الإيـمان ووجـد حلاوتـه؛ إذ لم يعد يشهد غيره تعالى فاعلًا.

وهكذا لو وازنا بين من لا يشعر بمكـروه الـنفس في حـب الله – وهو صاحب السـكر- وبـين مـن يشـعر بـه لكنـه يجد لذتـه فيـه – وهـو صاحب الصحو بعد السكر-، لوجـدنا أن الأخـير أقـوى نفسًـا حيـث تحولت الآلام عنده إلى لذة، ومن هنا هو أعلى درجة وأرفع مكانًا، وعليه فالصحو الذي هو بعد السكر أفضل من السكر الذي لا يعقبه صحو.

الدليل الثالث:

أن قلوب العارفين الكُمَّل ينبغي أن تكون مجردة من كل ما يثبت مع الله تعالى، ولا يتم هذا إلا برؤية الأشياء كـما هـي أي عـلى حقيقتهـا، «والرؤية الصحيحة على نوعين: الأول: أن النـاظر في الشيـء ينظـر إليـه بعين بقائه، والثاني: أن ينظر إليه بعين فنائه، فإذا نظر بعين البقاء يجد كل الموجودات ناقصة في بقائها؛ لأنها ليست باقيـة بنفسـها في حـال بقائهـا، وإذا نظر بعين الفناء يجد كل الموجودات فانية في جنب بقاء الحق، وهاتان

الصفتان تأمرانه بالإعراض عن الموجودات...لأن كل من رأى استراح، وهذا معنى قول الله عز وجل: { فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٢ } [سورة الحشر: جزء من الآية (٢)]، وما لم يَرَ فإنه لا ينجو، وهذا كله لا يستقيم إلا في حال الصحو، ولا علم لأهل السكر بهذا المعنى أبدًا»[١].

وهذا يعني أن إعراض القلب عن التعلق بالموجودات لا يحصل على التمام إلا إذا نظر إليها السالك بعين البقاء كما ينظر إليها بعين الفناء، وراحته من الدنيا وطمأنينته من الركون إليها لا تتم إلا بهذا، فتكون الموجودات على أية حال لا ثبات لها في قلبه ولا تعلق له بها، وكيف له أن يتعلق بها وهي ليست كاملة في بقائها بل ناقصة محتاجة مربوبة، كما أنها بجانب وجود الحق فانية على الحقيقة، وبالتالي فقلبه لا يتعلق بها بل يتعلق بالغني الرب الباقي سبحانه وتعالى.

فالعارف بالله الذي فضل طريق الصحو على السكر قد استغنى عن الدنيا في كل أحواله وأصبح قلبه – بفضل من الله تعالى وكرم- محفوظًا من التعلق بها، فهو خالص لله تعالى مجرد له على الحقيقة، إذ قد رأى الدنيا على حقيقتها واستراح منها بالكلية، وما ذلك إلا لأنه صار من

---

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٥.

أهل "التمكين" الذين «استقر حال المشاهدة عندهم، ودام محو الحدث وإثبات القدم لديهم»[١].

أما المفضل لحال السكر على الصحو فهو في سكره لم يَحْصُل له هذا المعنى؛ إذ هو غائب عن الدنيا، بل عن نفسه أيضًا، فهو محو، ولهذا هو غير مضمون النجاة من التعلق بالدنيا إذا اكتفى بعدم رؤيتها عن رؤيتها على حقيقتها، خاصة وهو لا يزال مأسورًا تحت حكم "التلوين" «يتردد بين الصحو الأول المُثْبِت للحدث والسكر الماحي له»[٢].

ومن أجل هذا كان الصحو الثاني الذي هو بعد السكر أفضل من السكر الذي لا يعقبه صحو.

الدليل الرابع:

أن السكر محل للآفة، لأن فيه تشويش الأحوال، وذهاب الصحة، وضياع زمام الأمر[٣].

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٩٦٢، والموسوعة الصوفية ص٨٧٣، وانظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٩، وعوارف المعارف ص٥٠٦.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٩٦٢، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤، وانظر: الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٩، وعوارف المعارف ص٥٠٦.

(٣) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٥، وانظر: منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ص١٢١،١٢٢ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، بدون).

فالمتلبس بحال السكر المستقر فيه المفضل له على الصحو عرضة للآفة أي فساد أمره وعدم الوصول، بل قد يؤول أمره إلى العجز واليأس عن فهم الحقيقة فهو مُشَوَّشُ الحال لا تركيز له، فلا يدري هل للدنيا وجود أو لا وجود لها، بل هل لنفسه وجود أو لا؟

ويحكي الهجويري قصة في هذا الصدد عن أبي عثمان المغربي[1] أنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي بحيث لم يكن يسمع آدميًا، حتى ذابت بنيته من المشقة، وصارت عيناه كَسَمِّ الخياط، وتبدلت صورته، وجاءه الأمر بالصحبة بعد عشرين عامًا، وقيل له: اصحب الخلق، فقال لنفسه: فلأبدأ بصحبة أهل الله ومجاوري بيته ليكون ذلك أكثر بركة، فقصد مكة، فلما استقبله المشايخ ووجدوه قد تبدلت صورته تعجبوا من أمره وأنه كيف عاش هذه المدة على هذه الحال، وسألوه: لم ذهبت؟ وماذا رأيت؟ وما وجدت؟ ولم عدت؟ فقال: ذهبت بسكر، ورأيت آفة السكر، ولقيت يأسًا، ورجعت بعجز، فقال جميع المشايخ: يا

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني البغدادي ثم النيسابوري، أقام بالحرم مدة وكان شيخه، صحب ابن الكاتب وحبيبًا المغربي وأبا عمرو الزجاجي ولقي أبا يعقوب النهرجوري وأبا الحسن بن الصائغ الدينوري وغيرهم من المشايخ، وكان أوحد عصره في الورع والزهد والصبر على العزلة، مات بنيسأبور سنة ٣٧٣هـ، وأوصى بأن يصلى عليه ابن فورك، من كلامه: «من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب».
(انظر: طبقات الصوفية ص٣٥٨:٣٦٢، وطبقات الأولياء ص٢٣٧).

أبا عثمان حرام على المعبرين من بعدك أن يعبروا عـن الصـحو والسكر، لأنك أنصفت كل الإنصاف وأوضحت آفة السكر[١].

وهكذا كان الشأن في حال السكر، بخلاف المتجاوز للسكر إلى الصحو فهو العارف الكامل، لا حيرة عنده ولا يـأس ولا تشـوش، بـل الحقيقة واضحة عنده وضوح الشمس في كبد السماء، بل أكثـر مـن هـذا الوضوح، فما ثم عنده إلا الله كامل الوجود قيوم السموات والأرض وما فيهن، وما دونه موجود لكن وجوده تحت قيوميته تعالى مربوب بربوبيته سبحانه.

الدليل الخامس:

أنه ثمة ثلاث مراتب:

الأولى: المتلبس بالصـحو الأول الـذي يثبـت فيـه الحـوادث ولا "يشهد" الله تعالى في قلبه.

الثانية: المتلبس بالسكر الذي ينفـي فيـه مـا سـوى الله تعـالى مـن موجودات حادثة، إذ لم يعد يشهد سوى الله تعالى.

الثالثة: المتلبس بالصحو بعـد السـكر، فهـو يشـهد الله تعـالى مـع إثبات الموجودات الحادثة.

---

(١) انظر: كشف المحجوب ج٢ ص٤١٦.

«فالصحو الأول حضيض النقصان لإفادته إثبات الحدث، والسكر معراج السالكين لإفادته محو الحدث، والصحو الثاني أوج الكمال لإفادته إثبات القدم»(١).

وإنما كان الصحو الثاني أعلى درجة وأعلى مقامًا من السكر، لأن صاحب السكر لم يشهد الله تعالى إلا في غيابه عن الحوادث، فقلبه لم يصل من التمكين ما يجعله مع الخلق بجسده ومع الحق بقلبه، بينما صاحب الصحو الثاني مغموس في عالم الأسباب لكن قلبه لم يغفل لحظة عن مسبب الأسباب.

ومن أجل صعوبة حصول هذا المعنى، أعنى معنى أن لا يغيب عن العارف شهود الحق تعالى مع إثباته للخلق مقارنة بحصول معنى غيابه عن الخلق تمامًا ومحوه لهم وشهوده للحق فقط، فقد قيل: «السكر ملعب الصغار والصحو مفنى الرجال»(٢)، أي إن السكر أشبه بميدان لعب الأطفال وأليق بالمبتدئين في الطريق الصوفي، أما الصحو فهو الميدان الذي يصرع فيه الرجال وهو من صفات الصوفية المتمكنين(٣).

وما أجمل ما قاله صاحب "قوانين حكم الإشراق" حين قال: «السالك المجذوب له المحو والإثبات، والمجذوب عطله المحو عن

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص٩٦٢.

(٢) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٦، والموسوعة الصوفية ص١٠٧٩.

(٣) التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٢٧٢.

الإثبات[١]...المجذوب فارق النفوس، وخرج عن المحسوس، والسالك شهد حقائق الكثائف واللطائف، واجتنى من الكل ثمرات المعارف، والرجوع إلى الحس أَوْلَى في الآخرة والأُولى، فالرجل من جمع بين السكر والصحو، والإثبات والمحو.

لا يجمع الضد إلا من له قدم   في الصدق بالحق من علم وتمكين»[٢].

هذا، وفي ضوء هذا الدليل الذي اتضح من خلاله كيف أن الصحو الذي يعقب السكر أفضل من السكر الذي لا يعقبه صحو فإنه لا يبقى مجال لما تمسك به مفضلو السكر على الصحو من أن الصحو يقتضي وجود الصفات البشرية التي هي أعظم حجاب بين العبد وبين الرب تعالى، أما السكر فبه تزول هذه الصفات ويذهب تدبير النفس واختيارها[٣].

---

(١) يتضح من كلامه أنه يقصد بالسالك المجذوب من عبر من السكر إلى الصحو، ويقصد بالمجذوب فقط من استقر في السكر ولم يعبر منه إلى الصحو.

(٢) قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق، لجمال الدين محمد أبي المواهب الشاذلي، ص٨٣ (ط المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، ط سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، راجعه وضبطه وصححه: محمد شحاتة إبراهيم).

(٣) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٤، والتصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٢٧١، والموسوعة الصوفية ص١٠٧٩.

نعم في الصحو تبقى الصفات البشرية لكنها لم تعد حجابًا بين الرب والعبد، بل لا يلتفت إليها العارف - والحال هذه- البتة، وهذا هو الفناء الحقيقي للصفات البشرية، حيث تكون مثبتة لكنها غير حاجبة له عن الوصل بذي العزة والجبروت، أما نفيها بالكلية وعدم وضعها في محل الاختبار فهذا توهم لفنائها وليس بفناء لها في الحقيقة، ولعل هذا ما أشاروا إليه بقولهم: «السكر توهم فناء الذات مع بقاء الصفات وهذا هو الحجاب، والصحو رؤية بقاء الذات مع فناء الصفات وهذا هو عين الكشف»(١).

الدليل السادس:

إذا كانت الأدلة السابق ذكرها تقتضي- تفضيل الصحو على السكر:

- من حيث أن الولاية تقتضي أن يكون الولي وارثًا للنبي يقوم مقامه في تعريف الخلق بالحق وتعبيدهم له وما يلزم لهذا من ضرورة مراعاة الولي لضوابط العقل والشرع، وأن هذا لا يكون إلا لمن تجاوز السكر إلى الصحو الذي بعده، كما رأينا في الدليل الأول.

- ومن حيث مدى التمكن من شهود قلب العبد لتوحيد الحق تعالى وأن هذا لا يكون إلا بإثبات الخلق مع الحق دون أن يؤثر إثباتهم في

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤١٦، والتصوف الثورة الروحية في الإسلام ص٢٧٢، والموسوعة الصوفية ص١٠٣٤.

هـذا التوحيـد، أي لمـن تجاوز السـكر إلى الصـحو، كـما رأينـا في الأدلـة الأخرى.

إذا كان ذلك كذلك فإن هناك مِنْ مفضلي الصحو على السكر مَنْ استأنس ببعض النصوص الشرعية وما فيها من إشارات تقتضي تفضيل الصحو على السكر إلى جانب الأدلة السابق ذكرها، ومن ذلك:

أ) ما سبق ذكـره عـن رويـم البغـدادي حـين سُـئل: أيهـما أفضـل الصـحو أو السـكر؟ فاسـتأنس بقـول المـولى سـبحانه تعـالى: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [سورة الأنعام: جزء من الآية (٩٨)] مبينًا أن فيه إشارة إلى أن الصـحو الـذي هـو بعـد السـكر هـو محـل إيـداع العلـوم الربانيـة والفيوضـات الإلهيـة، لأن الصـاحي بعـد سـكره في حـال "اسـتقرار"، والذي حاله هكذا هو "المستودَع" الـذي يسـتودعه الله تعـالى ويفـيض عليه، بخلاف المتلبس بالسكر فهو لا يزال في "انزعاج" واضطراب ولا استقرار له، والذي حاله هكذا هو مطالَب بتجاوز سكره والعبور منه إلى الصحو الثاني، ومن هنا قال رويم: «فإن هدأت استودعك وإن انزعجت طالبك، أما سمعته يقول: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}»[1].

---

(١) حلية الأولياء ج١٠ ص٢٩٧.

ب) حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأَتَجَوَّزُ في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»[١].

فمن المعلوم أن أكثر اللحظات التي يقترب العبد فيها من ربه تعالى هي لحظات الصلاة خاصة في السجود حيث قال فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٢]، ومما لا يماري فيه مسلم أن أكمل الخلق جميعًا قربًا من الله تعالى هو حبيبه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان ذلك كذلك فكون النبي صلى الله عليه وسلم يشعر ببكاء الصبي في صلاته التي هي قمة القرب من الله تعالى ويراعي حال أمه فيشفق بها فلا يطيل الصلاة، فهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم في قربه من الحق وفنائه فيه لم يكن غائبًا عن الخلق، بل شعوره بالخلق لم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي قتادة، كتاب "الأذان"، باب "مَنْ أَخَفَّ الصلاة عند بكاء الصبي" ، ج١ ص١٤٣ برقم ٧٠٧، وعنه أيضًا، في كتاب "الأذان"، باب " خروج النساء إلى المساجد بالليل والغَلَس"، ج١ ص١٧٣ برقم٨٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب "الصلاة"، باب "ما يقال في الركوع والسجود"، ج١ ص٣٥٠ برقم ٤٨٢ (ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون، ت محمد فؤاد عبد الباقي).

يحجبه عن فنائه بالحق جل وعلا، يقول ابن عجيبة[1] مشيرًا إلى هذا الاستدلال: «وهو (الصحو الثاني) مقام خاصة الخاصة، وهم أهل الرسوخ والتمكين، فكلما شربوا من خمر الحقيقة زاد صحوهم وتجوهر عقلهم، وكلما غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق زاد حضورهم، فتراهم مستغرقين في الفكرة والنظر، ومع ذلك يحسون بدبيب النملة حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة لكثرة ما بهم من الفطنة وهم مستغرقون في الحضرة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلي بالناس فإذا سمع بكاء الصبي خفف شفقة على أمه، فأهل هذا المقام لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم، فهم مجموعون في فرقهم، مفروقون في جمعهم، يشهدون الحق حال شهودهم الخلق، ولا يصدهم فناؤهم عن بقائهم، فهم فانون عن أنفسهم باقون بربهم، ولا بقاؤهم يصدهم عن فنائهم،

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الفاسي الأنجري: العلامة المؤلف المحقق الفهّامة البارع المدقق الصوفي الجامع بين الشريعة والحقيقة، من أشياخه الشيخ أحمد بن العربي الزعربي، له تآليف منها: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، و"البحر المديد في تفسير القرآن المجيد"، و"الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الأجرومية"، توفي في حدود ١٢٢٤ه ودفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان). (انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، للأستاذ الشيخ محمد بن محمد مخلوف، ج١ ص٥٧١ (ط دار الكتب العلمية – لبنان، (ط١) سنة ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣م، علق عليه: عبد المجيد خيالي)، والأعلام ج١ ص٢٤٥، والموسوعة الصوفية ص٤٨٥).

فظاهرهم مشغول بالحس مثلًا وباطنهم معمور بالمعنى، يعطون كل ذي حق حقه، فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق في الباطن، والشريعة حقها باستعمال الجوارح في حقوقها في الظاهر، ويوفون كل ذي قسط قسطه، فيوفون الناس قسطهم من الإحسان، والحق حقه في توحيده بالجنان»[١].

ج) يستأنس ابن عطاء الله السكندري[٢] بموقف جرى في حادثة الإفك يدل على أفضلية الصحو الثاني على السكر فيقول: «وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٥٦٥.

(٢) هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي، صحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي وصنف مناقبه ومناقب شيخه، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه، وهو من أشد خصوم ابن تيمية، توفي في نصف جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ بالمدرسة المنصورية كهلًا، وكانت جنازته حافلة، قال الذهبي: «كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل»، من مؤلفاته: "الحكم العطائية" في التصوف، و"تاج العروس" في الوصايا والعظات، و"لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن". (انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، ج١ ص٣٢٤،٣٢٥ (ط مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد/ الهند، (ط٢) سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م، تحت مراقبة: د/ محمد عبد المعيد ضان)، والأعلام ج١ ص٢٢١،٢٢٢، والموسوعة الصوفية ص٥٠١:٥٠٤).

على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشكري رسول الله[١]، فقالت: والله لا أشكر إلا الله، دلها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضي

---

(١) روايات الصحيحين المسندة تنص على أن أم السيدة عائشة – رضي الله عنهما- هي التي طلبت منها القيام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكره، ففي الصحيحين: «...فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله...». (أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة، كتاب "الشهادات"، باب "تعديل النساء بعضهن بعضًا"، ج٣ ص١٧٣ برقم٢٦٦١، وفي كتاب "المغازي"، باب "حديث الإفك"، ج٥ ص١١٦ برقم ٤١٤١، وكتاب "تفسير القرآن"، باب {لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا} [سورة النور: جزء من الآية (١٢)]، ج٦ ص١٠١ برقم ٤٧٥٠، ومسلم في صحيحه عنها أيضًا، كتاب "التوبة"، باب "في حديث الإفك وقبول توبة القاذف"، ج٤ ص٢١٢٩ برقم٢٧٧٠).

وقد علق ابن عجيبة على نسبة ابن عطاء الله طلب القيام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل شكره، أقول: علق على نسبة هذا الطلب لأبي بكر رضي الله عنه فقال: «قضية الإفك مشهورة مذكورة في سورة النور تولى شرحها أهل الظاهر، إلا أن ظاهر كلام الشيخ رضي الله عنه (ابن عطاء الله) أن القائل لها أبوها، والذي في الصحيح أن الذي قال لها: اشكري رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أمها...ويمكن الجواب بأن ذلك وقع بإشارة أبيها أو قالاه معًا أو سكوته كأنه وفاق، والله تعالى أعلم». (إيقاظ الهم في شرح الحكم ص٥٦٦).

لإثبات الآثار، وقد قال الله تعالى: {أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ} [سورة لقمان: جزء من الآية (١٤)]، وقال صلوات الله وسلامه عليه: "لا

وقد صح في بعض الروايات الواردة في حادثة الإفك أن أبويها قالا لها ذلك معًا، فأخرج البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، قال: وقال أبو أسامة: عن هشام بن عروة، قال: أخبرني أبي، عن عائشة قالت: لما ذُكِر من شأني الذي ذكر ... فذكر الحديث، وفيه: «فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أَحْمَدُ الله الذي أنزل براءتي». (صحيح البخاري، كتاب "تفسير القرآن"، باب {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٢٠} [سورة النور: الآيتان (١٩،٢٠)]، ج٦ ص١٠٧ برقم ٤٧٥٧).

ووصل هذه الرواية الإمام أحمد في مسنده ج٤٠ ص٣٦٨ برقم ٢٤٣١٧ (ط مؤسسة الرسالة، (ط١) سنة ١٤٢١ه – ٢٠٠١م، ت شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون)، قال: حدثنا أبو أسامة، حدثنا هشام عن أبيه، وفيه الحوار المذكور، ووصلها كذلك الإمام الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب "ومن سورة النور"، ج٥ ص١٨٥ برقم ٣١٨٠ (ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط سنة ١٩٩٨م، ت بشار عواد معروف)، قال: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة ... وذكر الحديث، وفيه الحوار المذكور أيضًا، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث هشام بن عروة».

يشكر الله من لا يشكر الناس"[١]، وكانت في ذلك الوقت مصطلمة[٢] عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار»[٣].

وهكذا فالمقام الأكمل الذي دل الصديق عليه ابنته عائشة – رضي الله عنها– وأرشدها إليه هو أن تثبت الآثار مع شهود الواحد القهار، ومقتضى هذا المقام الأكمل أن تقوم بشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنها رضي الله عنها في ذلك الحين كانت غائبة عن الخلق بفنائها في الحق.

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة، ج١٣ ص٣٢٢ برقم ٧٩٣٨، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الربيع بن مسلم –وهو الجمحي– فمن رجال مسلم»، وأخرجه أبو داود عنه أيضًا في سننه، كتاب "الأدب"، باب "في شكر المعروف"، ج٧ ص١٨٨ برقم ٤٨١١ (ط دار الرسالة العالمية، (ط١) سنة ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م، ت شعيب الأرنؤوط – محمد كامل قره بللي).

(٢) الاصطلام هو نعت غلبة ترد على القلوب فيستلبها بقوة سلطانه وقهره. (اللمع ص٤٥٠، وانظر: كشف المحجوب ج٢ ص٦٣٥، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص٦٦:٦٨).

(٣) رسائل ابن عطاء الله السكندري "نصوص المكاتبات والمناجاة"، ص١٣٧،١٣٨ (ط مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م، ت سعيد عبد الفتاح).

المبحث الثاني
محمد بن خفيف الشيرازي نموذجًا لمفضلي الصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع

لعله قد اتضح مما سبق في المبحث السابق أن ثمة ارتباطًا بين تفضيل الصوفي للصحو على السكر وبين مراعاة ضوابط العقل والشرع، وذلك من خلال بيان رواد هذا الطريق وكلامهم في تفضيل الصحو على السكر، وكذا من خلال عرض أدلة هذا الطريق.

وفي هذا المبحث يعرض البحث لأحد رواد هذا الطريق، معرفًا به ومبينًا كلامه في تفضيل الصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع، وهو الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي.

المطلب الأول: **نبذة عن الصوفي محمد بن خفيف الشيرازي**:

هـو محمـد بـن خفيـف بـن إسفكشـاد[١] الضـبي[٢] الفـارسي[٣]

---

(١) أو إسفكشار أو إسفكشاذ أو إسفكساد أو أسيد كشاذ، اختلاف بين المترجمين له، ولعله اختلاف راجع في بعضه إلى اختلاف النطق والبعض الآخر من تصحيفات النساخ.

(٢) يقول ابن خفيف عن نفسه: «نحن من بني ضبة، وكل الديلم من بني ضبة». (سيرة الشيخ الكبير ص٨٨).

وفي "الأنساب" أن "ضبة" هو ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن ربيعة بن معد بن عدنان. (انظر: الأنساب، لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، ج٨ ص٣٨١(ط مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد، (ط١) سنة ١٣٨٢ه - ١٩٦٢م، ت عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره)، ويقال: إن الديلم من بني باسل بن ضبة بن أد بن طابخة. (العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص٣٨١، وجمل من أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى البلاذري، ج١١ ص٣٦١ (ط دار الفكر – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٧ه – ١٩٩٦م، ت سهيل زكار ورياض الزركلي).

(٣) نسبة إلى بلاد "فارس"، وهي ولاية واسعة وإقليم فسيح، أول حدودها من جهة العراق أرّجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران، وكانت أرض فارس قديمًا قبل الإسلام ما بين نهر بلخ إلى منقطع أذربيجان وأرمينية الفارسية إلى الفرات إلى برّية العرب إلى عمان ومكران وإلى كابل وطخارستان، بدأ فتح فارس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واتسق فتحها كلها في أيام عثمان بن عفان رضي الله

الشيرازي[١]، ولد في مدينة شيراز سنة ٢٦٧هـ[٢]، ونشأ بها في أسرة تتمتع برغد العيش حيث كان أبوه من أمراء فارس[٣]، فهو أحد أمراء الجيوش والقواد الديالمة[٤]، إلا أن ابن خفيف هجر هذه الحياة المُتْرَفة وأظهر منذ طفولته حب الزهد والرياضة وطلب العلم حتى أن شيخه أحمد بن

عنه. (انظر: معجم البدان، لياقوت الحموي، ج٤ ص٢٢٦،٢٢٧ (ط دار صادر، بيروت، (ط٢) سنة ١٩٩٥م).

(١) نسبة إلى "شيراز" وهي بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث، وهي مما استجد عمارتها واختطاطها في الإسلام، قيل: أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج، ودُفِن بها جماعة من التابعين، وقد نُسب إلى شيراز جماعة كثيرة من العلماء في كل فن. (انظر: معجم البلدان ج٣ ص٣٨٠،٣٨١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٢، وتاريخ دمشق ج٥٢ ص٤٠٥، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٤٩، وطبقات الصوفية ص٣٤٥.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠، وكشف المحجوب ج٢ ص٤٤٨، وتذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣.

(٤) يقال في أصل الديلم: إن باسل بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر خرج مغاضبًا لأبيه، فوقع في أرض الديلم، فتزوج امرأة من العجم، فولدت له ديلم بن باسل فهو أبو الديلم كلهم، وهم أفخاذ وعشائر، ومنهم ملوك بني بويه. (انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين المقريزي، ج١ ص١٢٩ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ت محمد عبد القادر عطا).

يحيى[١] بَشَّره بأنه سيكون له مقام عظيم عند الله تعالى[٢].

ويبدو أن أمه التي كانت من العابدات القانتات[٣]، كان لها دور في هذا، وقد تركت أثرًا عميقًا في ولدها محمد حتى أنه رفض أن يبدل الخرقة[٤] التي ألبسته إياها بالخرقة التي قدمها له الصوفي البغدادي ابن

---

(١) هو من أوائل من حضر عليهم الشيخ محمد بن خفيف وتأدب على يديهم وتهذب، يكنى الشيخ أحمد بن يحيى بأبي العباس، كتب عن الجنيد وأبي محمد رويم، والتقى بسهل بن عبد الله التستري، روي الديلمي عن الشيخ محمد بن خفيف أنه قال: «ما رأيت واجدًا متحققًا في وجده على السرمدية مثل أحمد بن يحيى». (سيرة الشيخ الكبير ص٩١، وشد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار، لمعين الدين أبي القاسم جنيد الشيرازي، ص١٣٧،١٣٨ (ط مطبعة المجلس – طهران، ط سنة ١٣٦٨ه، ت محمد قزويني وعباس إقبال).

(٢) سيرة الشيخ الكبير ص٢١ وص٩١.

(٣) انظر: شد الإزار ص٣٦٨.

(٤) خرقة التصوف هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يديه، ولبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحيكم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه يقصد شيخًا بحسن ظن وعقيدة، يُحَكِّمُه في نفسه لمصالح دينه يرشده ويهديه ويُعَرِّفُه طريق المواجيد ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارًا للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخوله في

عطاء[١] تقديرًا لأمه[٢] التي اصطحبها معه في أحد رحلاته إلى الحج[٣].

ولم يكن زهد ابن خفيف وطلبه للعلم منذ نشأته بمانع له من العمل بحرفة، فقد تنقل بين عدد من الحرف، وكان ما يكسبه من عمله هذا يوزعه بين النفقة على نفسه ووالدته وبين اشتراء الورق[٤]، ولما انتقل إلى الكوفة عمل وراقًا، وكان ينفق مما يكسبه حينئذ على بعض أصحابه[٥].

حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. (انظر: عوارف المعارف ص١٧٣، ومعجم اصطلاحات الصوفية ص١٧٨،١٧٩، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ص٣٢٠،٣٢١).

(١) هو أبو العباس بن عطاء، واسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن يختص به، صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومن فوقهما من المشايخ، كان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه، توفي سنة ٣٠٩هـ، من كلامه: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة». (انظر: طبقات الصوفية ص٢٠٧، وطبقات الأولياء ص٥٩).

(٢) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٩.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١١٧، وشد الإزار ص ٣٦٨.

(٤) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

(٥)انظر: المصدر السابق ص١٧٤.

وكان لابن خفيف في شبابه عدة رحلات، منها رحلته إلى العراق والشام ومصر[1]، وسبق ذكر أنه رحل عدة مرات لحج بيت الله الحرام.

تزوج ابن خفيف وَوُلِد له ولد سماه "عبد السلام"، ومما ذُكِر عنه أنه حَصَّل العلم والمعرفة وتُوفي إبان شبابه في حياة والده ابن خفيف، وحضر جنازته جمع من الأئمة والشيوخ ولم يجسر أحد منهم أن يعزي الشيخ من فرط هيبته وسكونه ووقاره[2].

كان ابن خفيف من المُعمرين حيث عاش مائة وأربع سنين، فقد توفي في شيراز سنة ٣٧١هـ[3]، وروي عنه أنه كان به وجع الخاصرة، وكان إذا أصابه أقعده عن الحركة، فكان إذا نودي بالصلاة يُحمل على ظهر رجل، فقيل له: لو خففت على نفسك؟! قال: إذا سمعتم حي على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة[4]، وحينما بلغ النزع، كان يقول لبعض مريديه ممن جلسوا بجوار فراشه: قولوا أشهد أن لا إله إلا

---

(١) انظر: مقدمة "أنا ماريا شميل طاري" لكتاب "سيرة الشيخ الكبير"، ص٢٦:٢٦.

(٢) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٩، وشد الإزار ص٤٨،٤٩.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٢٤٧، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٥، وطبقات الأولياء ص٢٩٠.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٤، وطبقات الأولياء ص٢٩٣.

الله وأن محمدًا رسول الله حقًا وصدقًا، وظل يقول هذا حتى لفظ أنفاسه(١).

وقد اجتمع في جنازته خلق كثير فيهم اليهود والنصارى والمجوس كل أدى صلاة دينه، ومشى حولها فرسان الديلم والأتراك يمنعون الناس عنه وعن السرير(٢).

يُعَدُّ الشيخ ابن خفيف من الصوفية القلائل الذين جمعوا منذ صغرهم بين طريق طلب العلم وسلوك طريق التصوف، ولعل هذا بتأثير من شيخه أبي العباس أحمد بن يحيى الذي قال عنه ابن خفيف: «أول من لقيت من المشايخ أبو العباس أحمد بن يحيى، وعلى يده تُبت، وأول ما أمرني به كتابة الحديث، ثم أخذ بعد ذلك في رياضتي، فأولها أنه حملني إلى

---

(١) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٢٦٢.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق ج٢٢ ص١٤٦، وسيرة الشيخ الكبير ص٢٦٣، ويُذكر أن اجتماع اليهود والنصارى والمجوس في جنازة الشيخ الكبير ابن خفيف على الرغم من مخالفته لأديانهم ليعطينا بعدًا إنسانيًا تسامحيًا واسعًا تمثل في هذا الصوفي الذي دفعت إنسانيته وسماحته مع المخالف لدينه أن يحزن عليه ويحضر جنازته، وهذه الروح التسامحية هي ما يؤكد عليها الأزهر الشريف في عصورنا هذه التي انتشر فيها خطاب العنصرية والكراهية ورفض التعايش مع المخالف.

السوق، وجلس على باب مسجد، حتى عبر قصاب[١]، فاشترى قطعة لحم، وقال: "احملها بيدك إلى المنزل وارجع"، فأخذتها واستحيت من الناس، فدخلت مسجدًا، وتركتها بين يدي، أفكر بين حملها، وأن أعطيها إلى الحمال، فاستخرت الله، وقلت: "لا أخالف الشيخ"، فحملتها، والناس يقولون: "أيش هذا؟!"، وأنا أخجل وأسكت، حتى صرت بها إلى منزله، ورجعت إليه، وأنا عَرِقٌ مستحٍ، فقال: "يا بني، كيف كانت نفسك في حمل هذا اللحم، بعد أن كان الناس ينظرون إليك بعين التعظيم، وأنك من أولاد الملوك؟"، فحدثته فتبسم وقال: "يا بني قد حمدتُ فعلك، وسترى"»[٢].

وقد سمع الحديث من خلق كثير من شيراز ومن البلدان التي مر بها في رحلاته، ومن أشهر من سمع منهم محمد بن جرير الطبري[٣].

---

(١) القاصِب والقصَّاب: الجزار وحرفته القصابة، وهو إما أن يكون من "القَصْب" أي القطع، وإما أن يكون من أنه يأخذ الشاة بقصبتها أي بساقها. (انظر: معجم مقاييس اللغة ج٥ ص٩٤، ولسان العرب ج١ ص٦٧٥).

(٢) طبقات الأولياء ص٢٩١، وانظر: تاريخ دمشق ج٥٢ ص٤٠٨.

(٣) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٢،٢٥٣، ومحمد بن جرير الطبري هو الإمام العلم المجتهد عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل "آمل طبرستان"، مولده ٢٢٤هـ، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاء وكثرة

ولم يقتصر ابن خفيف من العلوم الشرعية على سماع الحديث بل تفقه على شيخ الشافعية في وقته ابن سريج[1].

وقد التقى في البصرة بالإمام الأشعري[2]، وأخذ عنه علم الكلام

تصانيف، استوطن بغداد وتوفي بها سنة ٣١٠هـ، من مؤلفاته: "أخبار الرسل والملوك" يعرف بتاريخ الطبري، و"جامع البيان في تفسير القرآن" يعرف بتفسير الطبري، و"اختلاف الفقهاء". (انظر: سير أعلام النبلاء ج١٤ ص٢٦٧:٢٨٢، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٢٠:١٢٨، والأعلام ج٦ ص٦٨،٦٩).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٢، وابن سُرَيْج هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، الفقيه الشافعي، كان من عظماء الشافعيين، وأئمة المسلمين، وكان يقال له: الباز الأشهب، ولي القضاء بشيراز، وكان يُفضَّل على جميع أصحاب الإمام الشافعي، حتى على المزني، وقام بنصرة مذهب الشافعي ورد على المخالفين، وكان حاضر الجواب له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري، توفي ببغداد سنة ٣٠٦هـ، من مؤلفاته: "الأقسام والخصال"، و"الودائع لمنصوص الشرائع". (انظر: وفيات الأعيان ج١ ص٦٦،٦٧، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٢١:٣٩، والأعلام ج١ ص١٨٥) .

(٢) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم ونصر مذهب أهل السنة والجماعة، وتوفي ببغداد سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب،

وكان من أعيان تلامذته[1]، فقد نُقِل عن القاضي أبي بكر الباقلاني[2] قوله: «سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول: دخلت البصرة، وكنت أطلب أبا الحسن فإذا هو في مجلس يناظر، وثَمَّ جماعة من المعتزلة، فكانوا يتكلمون، فإذا سكتوا وأنهوا كلامهم قال: كذا قلت وكذا وكذا، والجواب كذا وكذا، إلى أن يجيب الكل، فلما قام تبعته فقلت: كم لسان لك؟ وكم أذن لك؟ وكم عين لك؟ فضحك وقال: من أين أنت؟ قلت: من شيراز،

منها: "إمامة الصديق"، و"مقالات الإسلاميين"، و"الإبانة عن أصول الديانة"، و"استحسان الخوض في الكلام"، و" اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع". (انظر: وفيات الأعيان ج٣ ص٢٨٤، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٤٦، والأعلام ج٤ ص٢٦٣).

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠.

(٢) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور، وهو من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ، وسكن بغداد فتوفي فيها سنة ٤٠٣هـ، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجَّهه عضد الدولة سفيرًا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: "إعجاز القرآن"، و"الإنصاف"، و"تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل". (انظر: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٦٩، وسير أعلام النبلاء ج١٣ ص١١، والأعلام ج٦ ص١٧٦).

وكنت أصحبه بعد ذلك»[١].

أما عن أبرز شيوخه في طريق التصوف غير أحمد بن يحيى الذي سبق ذكره فهم رويم بن أحمد وأبو محمد الجريري[٢] وأبو العباس بن عطاء[٣].

وهل التقى بسيد الطائفة وطاووس الفقراء أبي القاسم الجنيد؟

النصوص الواردة في هذا الصدد غير قاطعة، «وليس في الإمكان القطع برأي في هذا الموضوع، ولكننا نستطيع أن نقول بغير تردد أن أفكار

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠، وطبقات الصوفية ص٣٤٥، وسيرة الشيخ الكبير ص١٥٢، وص١٥٨، وص١٦٠.

(٢) هو أحمد بن محمد الحسين الجُريرى، كان من كبار أصحاب الجنيد وصحب أيضًا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم أُقْعِد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه، توفي سنة ٣١١هـ، من كلامه: «من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذ بكلام الحق ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه». (انظر: طبقات الصوفية ص٢٠٣:٢٠٦، وطبقات الأولياء ص٧١:٧٦).

(٣) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، ج٧ ص٤٩٤ (ط دار الغرب الإسلامي، (ط١) سنة ٢٠٠٣م، ت د/ بشار عواد معروف).

الجنيد قد تركت تأثيرًا عميقًا في أقوال ابن خفيف، خاصة فيما يتعلق بأقواله حول الحب الإلهي»[1].

وسنعرف أن ابن خفيف التقى بالحلاج وأنه من القلة من المشايخ الذين قبلوه وصححوا حاله وذلك حين الكلام على ارتباط تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر بمراعاته لضوابط العقل والشرع.

ومن أشهر تلامذة الشيخ محمد بن خفيف الذين اتفق أصحاب التراجم[2] عليهم: أبو الفضل الخزاعي[3]، والقاضي أبو بكر الباقلاني،

---

(١) مقدمة "أنا ماريا شميل طاري" لكتاب "سيرة الشيخ الكبير" ص٢٧.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٢، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠، ومقدمة "أنا ماريا طاري" لكتاب "سيرة الشيخ الكبير" ص٣٧.

(٣) هو محمد بن جعفر بن عبد الكريم بن بديل ركن الإسلام، أبو الفضل الخزاعي الجرجاني، من أئمة القراءات، جال في الآفاق في طلب القراءات، توفي سنة ٤٠٨هـ، من مؤلفاته: "المنتهى في الخمسة عشر" يشتمل على مائتين وخمسين رواية، و"تهذيب الأداء في السبع"، و"الإبانة في الوقف والابتداء". (انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ج٩ ص١٣٤، وغاية النهاية في طبقات القراء، لأبي الخير شمس الدين ابن الجزري، ج٢ ص٩٨،٩٩ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م، طبعة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة ١٩٣٢م ج. برجستراسر)، والأعلام ج٦ ص٧١).

ومحمد بن عبد الله بن باكويه[١].

كان الشيخ ابن خفيف من المهتمين بتأليف الكتب في علوم الشريعة والحقيقة، وكانت كتبه المطولة تبلغ خمسة عشر كتابًا، وكذلك كتبه الصغيرة، أما الرسائل المتفرقة التي سئل عنها فكانت كثيرة[٢]، ومعظم هذه المؤلفات مفقود ولم يبق منه إلا النذر اليسير.

ومن كتبه التي حُفِظَتْ لنا: كتاب "الاقتصاد"[٣]، ورسالة

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن باكويه الشيرازي، أحد المحدثين ومشايخ الصوفية الكبار، رحل إلى بلدان عدة، وأخذ عن جماعة من المشايخ منهم محمد بن خفيف الشيرازي، وأخذ عنه آخرون منهم أبو القاسم القشيري، توفي سنة ٤٢٨ه، من مؤلفاته: "بداية الحلاج ونهايته"، و"أخبار العارفين". (انظر: سير أعلام النبلاء ج١٧ ص٥٤٤، والأعلام ج٦ ص٢٢٧).

(٢) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٨، وتذكرة الأولياء ص٦٦١.

(٣) كتاب الاقتصاد، لابن خفيف، مخطوط، جهة الحفظ: المخطوطات العربية في جامعة "برنستون" مجموعة "جاريت"، تصنيف المخطوط: تصوف، برقم (٢٦٥٤)، رمز الحفظ (459)، البداية: «الحمد لله الذي حمد نفسه بالثناء على نفسه...هذا كتاب اختصرته للمبتدئ من المريدين...إلخ»، عدد الأوراق: ٧٨ب – ٩٠أ، الناسخ وتاريخ النسخ: نجيب بن إمام الدين الإيجي بشيراز في جمادى الأولى ٨١٨ه.

"الاعتقاد"[١]، و"الوصية"[٢].

ومن الكتب المفقودة إلى الآن: "آداب المريدين"، و"اختلاف الناس في الروح"، و"جامع الإرشاد"، و"الفصول في الأصول"، وغيرها كثير[٣].

كُنِّي محمد بن خفيف الشيرازي في صغره بأبي الحسين، وهي الكنية التي كناه أبوه بها[٤]، إلا أنه عند بلوغه صار يكنى بأبي عبد الله، وهي الكنية التي اشتهر بها بين أهل العلم[٥].

ولُقِّب أبو عبد الله بن خفيف بألقاب كثيرة، منها: "شيخ شيراز"[٦]، و"شيخ الصوفية"[٧]، و"شيخ المشايخ"[٨]، و"شيخ بلاد

---

(١) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف، مخطوط، جهة الحفظ: مكتبة الفاتح، تصنيف: مجاميع الفنون، برقم (٥٣٩١/ ٣)، وتوجد نسخة مخطوطة أخرى من هذه الرسالة في مكتبة أيا صوفيا بعنوان "العقيدة الصحيحة"، تصنيف: مجامع رسائل، برقم (٤٧٩٢/ ٢٨)، والرسالة مطبوعة وملحقة بكتاب "سيرة الشيخ الكبير" ص٣٤٠:٣٦٥.

(٢) هذه الوصية ملحقة بكتاب "سيرة الشيخ الكبير" ص٣٢٧:٣٣٩.

(٣) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٧، هدية العارفين ج٢ ص٤٩،٥٠.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٤، وسيرة الشيخ الكبير ص٨٧ و١١٨.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٢، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٤٩، وطبقات الصوفية ص٣٤٥، وتذكرة الأولياء ص٦٦١.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٢٩٩.

(٧) انظر: المصدر السابق ج١٦ ص٣٤٢.

(٨) انظر: طبقات الصوفية ص٣٤٥، وتبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، للحافظ ابن عساكر، ص١٩٠ (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط٣) سنة ١٤٠٤هـ)، وطبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٤٩.

فارس"[1]، و"الزاهد"[2]، و"الشيخ الكبير"[3].

وهذه الألقاب تدل على هذه المكانة العظيمة التي تبوأها ابن خفيف بين المتصوفة، بل بين أهل العلم بصفة عامة، وقد أثنى عليه أكابر العلماء:

- فشهد له القاضي أبو بكر الباقلاني بعلو كعبه في علم الكلام، حيث جاء في "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" ما نصه: «قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فخرجت إلى شيراز، فلما دخلت المدينة استقبلني ابن خفيف في جماعة من الصوفية وأهل السنة، فلما جلسنا في موضع كان ابن خفيف يدارس فيه أصحابه "اللمع" للشيخ أبي الحسن الأشعري، قال له القاضي أبو بكر: تمادَ على التدريس كما كنت، فقال له ابن خفيف: أصلحك الله إنما أنا بمنزلة المتيمم عند عدم الماء فإذا وُجِد الماء فلا حاجة إلى التيمم، فقال له القاضي: جزاك الله خيرًا وما أنت بمتيمم بل لك وافر من هذا العلم وأنت على الحق والله ينصرك»[4].

---

(١) انظر: تاريخ دمشق ج٥٢ ص٤٠٥.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ج٧ ص٣٤.

(٣) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص٨٤، وشد الإزار ص٣.

(٤) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ج٣ ص٨٠ (ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ط سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م، ت مصطفى السقا وآخرون).

- ومدحه أبو عبد الرحمن السلمي فقال عنه: «كان شيخ المشايخ في وقته...وكان عالمًا بعلوم الظاهر وعلـوم الحقـائق، أوحـد المشـايخ في وقته حالًا وعلمًا وخلقًا»[1].

- وذكر ابن عساكر[2] عنه أنه «شيخ المشايخ»، وأنه «لم يبق للقوم أقدم منه سنًا ولا أتم حالًا ووقتًا»، وأنه «من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر متمسكًا بعلوم الشريعة من الكتاب والسنة»[3].

---

(١) طبقات الصوفية ص٣٤٥.

(٢) هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، الدمشقي الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، ورحل وطوف وجاب البلاد ولقي المشايخ، وكان رفيق السمعاني "صاحب الأنساب" في رحلاته، ولد في دمشق سنة ٤٩٩هـ وتوفي بها سنة ٥٧١هـ، من مؤلفاته: "تاريخ دمشق الكبير" يعرف بتاريخ ابن عساكر، و"تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري"، و"كشف المغطى في فضل الموطا". (انظر: وفيات الأعيان ج٣ ص٣٠٩:٣١١، وطبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢١٥:٢٢٣، والأعلام ج٤ ص٢٧٣،٢٧٤).

(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص١٩٠.

– وشهد له شمس الدين الذهبي[1] حيث قال: «قد كان هذا الشيخ قد جمع بين العلم والعمل، وعلو السند، والتمسك بالسنن، ومتع بطول العمر في الطاعة»[2].

وهذا قليل من كثير من الثناء على هذا العالم الرباني، الذي اتفقت الجمهرة من علماء الشريعة والحقيقة على أنه مقدم فيهما، فلله دره من إمام مقدم وحبر معظم، رحم الله الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي ورفع مقامه في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، الحافظ المؤرخ، قال عنه التاج السبكي: «شيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها»، تركمانيّ الأصل، من أهل "ميافارقين"، ولد في دمشق سنة ٦٧٣هـ وتوفي بها سنة ٧٤٨هـ، رحل إلى القاهرة وطاف كثيرًا من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المائة، منها: "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، و"سير أعلام النبلاء"، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال". (انظر: طبقات الشافعية الكبرى ج٩ ص١٠٠:١٢٣، والأعلام ج٥ ص٣٢٦).

(٢) سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٣٤٧.

المطلب الثاني: تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع:

أولًا: تفضيل الشيخ محمد بن خفيف للصحو على السكر:

تبنى الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي طريق تفضيل الصحو على السكر، فقد نص في "رسالة الاعتقاد"(١) على أن «السكر للمريدين حق وللعارفين باطل، وغلبات الحق على سائر الخلق جائز، والأحوال للمتوسطين والمقامات للعارفين والشدة للمريدين، والصحو أفضل من السكر»(٢).

فمن خلال هذا النص نفهم أن ابن خفيف يبين ضمنًا في مبتدأ كلامه أن السكر أقل درجة من الصحو وذلك حين نص على أن "السكر يكون للمريدين حق وللعارفين باطل"، فمعنى هذا أن العارفين لا يكونون عارفين وهم لا يزالون سكارى، فهو في حقهم باطل، ثم نجده يصرح تصريحًا في آخر النص أن الصحو أفضل من السكر.

---

(١) التي نص في مفتتحها أنها تحتوي على معتقده ومعتقد الأئمة من أهل السنة قبله وفي زمانه، ثم سرد عقائد أهل السنة فيها بصورة موجزة ودون ذكر للأدلة على نحو ما نجد في "الفقه الأكبر" المنسوب للإمام أبي حنيفة، و"العقيدة الطحاوية" للإمام الطحاوي".

(٢) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٦٢.

وذكر الهجويري في "كشف المحجوب" كلامًا يتسق مع ما نص عليه ابن خفيف آنفًا، حيث ذكر أن ابن خفيف ومعه جماعة أخرى «على أن الحضور مقدم على الغيبة، لأن كل ألوان الجمال منعقدة في الحضور، والغيبة عن النفس طريق إلى الحق، فإذا أقبلت الحضرة صار الطريق آفة، فكل من يغيب عن نفسه يكون لا محالة حاضرًا بالحق، وفائدة الغيبة الحضور، والغيبة بدون الحضور جنون»[١].

وواضح من هذا أن ابن خفيف يرى أن الغيبة لابد أن يعقبها الحضور، فهي طريق موصلة له، فإذا استصحبها الصوفي بعد إقبال الحضرة تكون آفة أي عائقًا عن حضور الحق له.

ولما كانت الغيبة قريبة من السكر والحضور قريبًا من الصحو[٢]، فيكون مؤدى هذا الكلام من الهجويري أن طريق ابن خفيف هو تفضيل الصحو على السكر، ويكون كلامه هذا متسقًا مع ما سبق ونص عليه ابن خفيف في "رسالة الاعتقاد" حيث قال: «السكر للمريدين حق وللعارفين باطل»[٣].

غير أن المتتبع لكلام الهجويري في "كشف المحجوب" يجد كلامًا

---

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤٩٠.

(٢) سبق بيان هذا في تمهيد هذا البحث.

(٣) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٦٢.

يُفهم منه التعارض مع ما نص عليه ابن خفيف من تفضيله للصحو على السكر وما فهم من كلام الهجويري نفسه حين بين أن طريق ابن خفيف هو تقديم الحضور على الغيبة، حيث نجد الهجويري في موضع آخر من "كشف المحجوب" يَعُدُّ ابن خفيف ضمن مَنْ يرى أن إظهار الكرامة على الولي لا يكون إلا في حال السكر، يقول الهجويري: «وأبو يزيد وذو النون المصري[1] ومحمد بن خفيف والحسين بن منصور ويحيى بن معاذ الرازي[2] رضي الله عنهم ومعهم جماعة على أن إظهار الكرامة على الولي

---

(١) هو أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري الإخميمي، قيل: اسمه ثوبان، وقيل: الفيض، وقيل: ذو النون لقبه، واشتهر بذلك، كان أحد العلماء الورعين في وقته، وكان أبوه نوبيًا فيما قيل، وهو أول من تكلم بمصر في "ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية" فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه، فعاد إلى مصر، وتوفي بجيزتها سنة ٢٤٥هـ، من كلامه: «سقم الجسد في الأوجاع، وسقم القلوب في الذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة في الطعام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع ذنبه». (انظر: طبقات الصوفية ص٢٧:٣٤، وطبقات الأولياء ص٢١٨:٢٢٣، والأعلام ج٢ ص١٠٢).

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، كان أوحد وقته في فنه، تكلم في علم الرجاء وأحسن الكلام فيه، توفي بنيسابور سنة ٢٥٨هـ، من كلامه: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه». (انظر: طبقات الصوفية ص٩٨:١٠٣، وطبقات الأولياء ص٣٢١:٣٢٦).

لا يكون إلا في حال السكر»(١).

وقد يكون الهجويري لا يربط هنا بين قضية تفضيل الصحو على السكر وبين قضية إظهار الكرامة على يد الولي في حال السكر، أي إنه لا تعارض والحال هكذا بين أن يفضل ابن خفيف الصحو على السكر وبين أن يرى أن الكرامة تكون في حال السكر لا الصحو، فالسكر على أية حال يعرض للصوفي في مرحلة من مراحل الطريق.

إلا أن هذا يَشْكُل بما ذكره الهجويري دليلًا لأصحاب هذا الرأي القائل بأن الكرامة تظهر في حال السكر، حيث ذكر ضمن ما ذكر أن الإحساس بالأوصاف البشرية لا يكون إلا مِن صاحب اللهو الغافل عن الله تعالى أو من الساهي أو من المتمكن الذي لا يشغله إحساسه بأوصافه البشرية عن حضوره برب البرية، والمتمكنون هم الأنبياء ولا غير، «ويبقى هنا الأولياء وهم في تردد وتلون، وبدون تحقيق وتمكين، وطالما كانوا بقيام حال البشرية مع أنفسهم يكونون محجوبين، وعندما يكاشفون يصيرون مدهوشين ومتحيرين في حقيقة ألطاف الحق، وإظهار الكرامات لا يصح إلا في حال الكشف، لأنها درجة القرب، وذلك هو الوقت الذي يستوي لدى الولي فيه الحجر والذهب...ولا يكون ذلك إلا في حال السكر»(٢).

---

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤٦٠.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

فهذا الكلام يظهر منه أن منطلـق مـن يـرى أن الكرامـة تظهـر في حال السكر هو أن هذا الحال فيه الكشف والقرب من الله تعالى، أي إنه منتهى الكمال الذي يصل له الولي، وعليه فهو أفضل من الصحو.

وهذا يعني أن القائل بأن ظهور الكرامة على الولي إنـما يكـون في حال السكر هو في مساواة من يقول بـأن السـكر أفضـل الأحـوال التـي يتلبس بها الصوفي، ويؤكد هذا أن الفريق الآخر الذي يـرى أن الكرامـة تظهر في حال الصحو علل هذا بما يفيد أن الصحو هو أفضل حال يتلبس به الصوفي، فيذكر الهجويري دليل هذا الفريق مبينًا «أن الله تعـالى جعـل أوليـاءه أوليـاء للعـالم، ونـاط بهـم الحـل والعقـد، وصـير أحكـام العـالم موصولة بهمتهم، فوجب أن تكون آراؤهم أصـح كـل الآراء، وقلـوبهم أشفق كل القلوب، وبخاصة على خلق الله، لأنهـم واصـلون، والتلـوين والسـكر يكونـان في حـال الابتـداء، فـإذا حصـل البلـوغ تبـدل التلـوين بـالتمكين، ومـن ثـم يكـون الـولي وليًـا حقًـا، وتكـون كراماتـه صحيحة...وأولئك الذين يقولون: إن الذهب والمدر صارا لديهم سواء، فهذا كله علامة السكر وعدم صحة الرؤية، ولا يكون لهذا كبير شرف، فالشرف يكون للصحيح الرؤية الصحيح المعرفة الـذي يكـون الـذهب لديه ذهبًا والمدر مدرًا، ولكنه يكون بصيرًا بآفاتها، حتى ليقـول: "يـا

صفراء ويا بيضاء غري غيري"[1]، لأني رأيت آفاتكما، فَمَنْ يَرَ آفاتها

---

(1) هذا من كلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما نبه على ذلك الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة، ص٧٣٨ برقم ١٣٣٥ (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨م، ت محمد عثمان الخشت)، وعزا أثر علي بن أبي طالب للإمام أحمد في مناقبه، وهو في "فضائل الصحابة" للإمام أحمد بسنده عن علي بن ربيعة الوَالِبِيِّ، عن علي بن أبي طالب قال: جاءه ابن التياح فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، قال: الله أكبر، قال: فقام متوكيًا على ابن التياح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال: هذا جَنَايَ وخياره فيه، وكل جانٍ يده إلى فيه، يا ابن التياح، علي بأشياخ الكوفة، قال: فنودي في الناس، فأَعْطَى جميع ما في بيت المسلمين وهو يقول: يا صفراء، يا بيضاء، غري غيري هاوها وهو يقول: يا صفراء، يا بيضاء، غري غيري هاوها، حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين. (فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ج١ ص٥٣١ برقم ٨٨٤ (ط مؤسسة الرسالة – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ت د/ وصي الله محمد عباس)، وسنده حسن، فيه وهب بن إسماعيل بن محمد بن قيس الأسدي أبو محمد الكوفي، قال أحمد: كتبنا عنه أحاديث، روى عندنا مناكير عن وقاء بن إياس، وذكر الساجي عن أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو موسى محمد بن المثنى: ثنا وهب بن إسماعيل الأسدي، وكان من الثقات، وقال أبو داود: ما سمعت إلا خيرًا، وقال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال يخطيء وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، ولخص الحافظ ابن حجر

ويعرف أنهما محل الحجاب ويَقُل بتركهما يَلْقَ الثواب»[1].

وواضح من هذا الكلام أن من يرى أن الكرامة تظهر على يد الولي في حال الصحو فإن حيثية قوله هذا أن الصحو أفضل حال يصل إليه الصوفي.

وخلاصة الأمر أن إدراج الهجويري لابن خفيف ضمن من يقول بأن الكرامة تظهر على يد الولي في حال السكر مع عده ممن يفضل الصحو على السكر أو الحضور على الغيبة هو أمر مُشْكِل، ولا سبيل إلى دفع هذا الإشكال من خلال القول بأن ربط الكرامة بحال السكر هو مقام مختلف عن تفضيل الصحو على السكر، لا سبيل إلى هذا حيث ظهر من خلال أدلة الفريقين السابقة أن منطلق من يقول بظهور الكرامة في حال السكر هو كون السكر أفضل حال يصل إليه الصوفي، ومنطق من يرى أن الكرامة تكون في حال الصحو هو أفضلية الصحو على السكر.

حاله في التقريب بقوله: صدوق. (انظر: تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر، ج١١ ص ١٥٨ برقم ٢٦٩ (ط مطبعة دائرة المعارف النظامية – الهند، (ط١) سنة ١٣٢٦ه)، وتقريب التهذيب، له أيضًا، ص ٥٨٤ برقم ٧٤٦٨ (ط دار الرشيد – سوريا، (ط١) سنة ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م، ت محمد عوامة).

(١) كشف المحجوب ج٢ ص٤٦٢.

ومن هنا نقول: لعل إدراج الهجويري لابن خفيف ضمن من يرى أن الكرامة تظهر على يد الولي في حال السكر كان منه على سبيل السهو، والله أعلم بحقيقة الحال.

وعلى كلٍ، فما نص عليه ابن خفيف نفسه في "رسالة الاعتقاد"، وما أكده الهجويري عن ابن خفيف حين بَيَّنَ أن مذهبه في الغيبة والحضور هو تقديم الحضور على الغيبة، وما سيُذكر لاحقًا من ربط ابن خفيف لتفضيل الصحو على السكر بمراعاته لضوابط العقل والشرع، ليدل دلالة قاطعة على أن ابن خفيف من رواد طريق تفضيل الصحو على السكر.

ثانيًا: ارتباط تفضيل ابن خفيف للصحو على السكر بمراعاته لضوابط العقل والشرع:

يظهر ارتباط تفضيل الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي للصحو على السكر بمراعاته لضوابط العقل والشرع من خلال:

- تأكيده على ضرورة تأسيس المريد على علوم الشريعة عقليها ونقليها كحصن له من الوقوع في شطحات مفضلي السكر على الصحو.

- رفضه للدعاوى الباطلة المصادمة للعقل والشرع والتي قد تفهم من شطحات مفضلي السكر على الصحو وإنكاره عليهم.

وتفصيل هذا لدى الشيخ الكبير على النحو الآتي:

١) تأكيده على ضرورة تأسيس المريد على علوم الشريعة عقليها ونقليها كحصن له من الوقوع في شطحات مفضلي السكر على الصحو:

نص الشيخ الكبير محمد بن خفيف على ضرورة تأسيس المريدين السائرين في درب معرفة الله تعالى على علـوم الشـريعة نقليهـا وعقليهـا، حيث يقول في وصيته: «يحتاج المريد إلى أربعة أشياء: دابـة قـاهرة، ودار واسعة، وثوب حسن، وسراج مضيء، فأما دابة قاهرة فهي الصبر، وأما دار واسعة فهي العقل، وأما ثوب حسن فهو الحياء، وأما سراج مضيء فهو العلم»[١].

فههنا نحن نرى الشيخ الكبير يؤكـد عـلى أهميـة العقـل والعلـم للمريد، وواضح أن العلـم المقصـود هـو العلـم بالشرع؛ إذ الشرع هـو السراج الذي يضيء للعبد الطريق الذي يرضاه الله تعالى له.

فمراعـاة العقـل والشرع سـبب في حفـظ المريـد مـن الوقـوع في الشطح الذي وقع فيه مفضلو السكر على الصحو، وفي هذا السياق يقول ابن خفيف في رسالة "الاعتقاد": «ويعتقد أن الواجد المحقق محفوظ»[٢].

(١) الوصية، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٣٦،٣٣٧.

(٢) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٦٤.

ومعنى هذا أنه في حال التلبس بالوجد[1] الذي قد يكون مداعاة للشطح والخروج بدعاوى تصادم العقل والشرع قد جرت سنة الله تعالى أن لا يُحفظ في هذا الحال من هذا الشطح وتلك الدعاوى إلا من كان "مُحَقِّقًا" أي مُؤَسَّسًا على العلم الشرعي عقليه ونقليه إلى جانب سلوكه طريق التصوف، وكما قيل: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تفقه[2] وتصوف فقد تحقق»[3].

---

(١) الوجد هو مصادفة الباطن من الله تعالى واردًا يورث فيه حزنًا أو سرورًا أو يُغيِّره عن هيئته ويغيبه عن أوصافه بشهود الحق. (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ج٢ ص١٧٥٧، وانظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٨١، وعوارف المعارف ص٥٠٣)، وفي "اللمع" للسراج الطوسي: «الوجد مباشرة رَوْح ومطالعة مزيد، لا يصبر عن قليله ولا يقدر على كثيره، التخييل منه متدارك والاستحثاث منه إليه متواتر، فلذلك يقع اللهف وربما كان دونه التلف...والرعدة والغشية وزوال الأعضاء والغلبة على العقل فلعظم قدر الوارد وقوة سطوته...ولولا أنه أمسك أولياءه وألقى على كل قلب من ذلك ما أطاقه لطاشت عقولهم وذهلت نفوسهم». (اللمع ص٣٨٥).

(٢) التفقه ههنا ليس محصورًا في الفقه الذي هو الأحكام الشرعية العملية بل هو يعم علوم الشريعة كلها معقولها ومنقولها.

(٣) نُسِبَتْ هذه المقولة للإمام مالك بن أنس دون سند. (انظر: قواعد التصوف، للشيخ أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور بـ"زروق"، ص١٥(ط دار البيروتي – دمشق، (ط١) سنة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م، ضبطه وعلق عليه: محمود

ومن أجل أن التأسيس على العلم الشرعي عقليه ونقليه هو سبب في حفظ الصوفي من الوقوع في الشطح وما يفهم منه من دعاوى تصادم

بيروتي)، وشرح عين العلم وزين الحلم، لملا علي القاري، ج١ ص٣٣ (ط إدراة الطباعة المنيرية – مصر، ط سنة ١٣٥١ه).

وبغض النظر عن القائل فهي مقولة سديدة تبين أن كمال الشخصية الإسلامية لا يتم إلا بالجمع بين علوم الشريعة والتصوف السني، يقول الشيخ زروق الفاسي في قواعده بعد أن بين أن حقيقة التصوف هي صدق التوجه إلى الله تعالى: «صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه {وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ} [سورة الزمر: جزء من الآية (٧)]، فلزم تحقيق الإيمان {وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ} [سورة الزمر: جزء من الآية (٧)]، فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوف إلا بفقه؛ إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان؛ إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة لها إلا بها فافهم، ومنه قول مالك – رحمه الله–: "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تفقه وتصوف فقد تحقق".ا.ه، قلت (الشيخ زروق): تزندق الأول لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني لخلو عمله من التوجه الحاجب عن معصية الله وعن الإخلاص المشترط في العمل لله، وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق، فاعرف ذلك». (قواعد التصوف ص١٥،١٦).

المعقول والمنقول فإن الشيخ الكبير يوصي الصوفية بالاقتداء بخمسة من الشيوخ الموجودين في وقته مبررًا ذلك بأنهم جمعوا مع الحال العلم فصاروا قدوة يسير المرء على خطاهم وهو مطمئن البال، فالله تعالى -بفضله- حفظهم بما عندهم من العلم، خلافًا لغيرهم ممن غلبتهم الأحوال وخلوا من العلم، وفي هذا يقول: «اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم: الحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق، أما الشيوخ الآخرون فكانوا أرباب حال، وأصحاب مقامات ومكاشفات، وقد صدر عنهم في حال الاستغراق بعض كلمات لا تستقيم بميزان الشرع، وحينما كانوا يعودون إلى وعيهم كانوا يتوبون عن هذه الكلمات، ويعودون ويرون الاستغفار واجبًا»[1].

وهذا لا يعني أن الشيوخ الذين أوصى بالاقتداء بهم ليسوا من أصحاب المكاشفات، وإنما هم في مكاشفاتهم محفوظون بحفظ الله تعالى لهم من الشطح لكونهم حصنوا أنفسهم بالعلم الشرعي عقليه ونقليه، فجاءت مكاشفاتهم على وفاق مع العقل والشرع.

---

(1) سيرة الشيخ الكبير ص١٠٩،١١٠، وانظر: الرسالة القشيرية ج١ ص٥١، وطبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٢٧٦.

وما يهمنا في هذا المقام هذا الارتباط بين كون الشيخ الكبير أحد أولئك الصوفية الذين فضلوا الصحو على السكر وبين دعوته لضرورة تأسيس الصوفي على علوم الشريعة نقليها وعقليها.

٢) رفضه للدعاوى الباطلة التي قد تفهم من شطحات مفضلي السكر على الصحو وإنكاره عليهم:

رفض الشيخ ابن خفيف الدعاوى الباطلة المصادمة للعقل والشرع والتي قد تفهم من شطحات الصوفية مفضلي السكر على الصحو التي صدرت منهم في سكرهم، ومن هذه الدعاوى الباطلة دعوى حلول الله تعالى في أحد مخلوقاته أو اتحاد أحدهم به سبحانه وتعالى عن ذلك، ورؤية الأولياء له تعالى في الدنيا بأعينهم، وكون الولاية أرفع درجة من النبوة، وإسقاط التكاليف الشرعية عند بلوغ نهاية الطريق.

فعن دعوى الحلول والاتحاد يقول ابن خفيف في رسالة "الاعتقاد": «وليس (الله تعالى) بمحل للحوادث ولا الحوادث محل له، ولا حال في الأشياء ولا الأشياء حالة فيه، ولا يتجلى في شيء ولا استتر بالحدث»[1].

وعن دعوى رؤية الأولياء لله تعالى في الدنيا بأعينهم ودعوى

(١) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٤٣.

أفضلية الولاية على النبوة يقول: «والرؤية في دار الدنيا محال[1]، والنبوة

---

(١) ليس المقصود من الاستحالة هنا الاستحالة العقلية؛ إذ رؤية المؤمنين لله تعالى بأبصارهم من الأمور الجائزة عقلًا بإجماع أهل السنة وهذا الجواز غير مقيد بالدنيا أو الآخرة، فهذه الرؤية هي في نفس الأمر جائزة، ولأهل السنة مسلكان في إثبات هذه القضية مسلك نقلي وهو العمدة وآخر عقلي. (انظر في تفصيل هذه القضية: شرح المواقف ج٨ ص١٣١:١٤٤، وشرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني، ج٤ ص١٨١:١٩٠ (ط عالم الكتب – بيروت، (ط٢) سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ت د/ عبد الرحمن عميرة).

وإذا كان ذلك كذلك، فإن الاستحالة المقصودة هنا هي الحكم بامتناع وقوعها في الدنيا – مع جوازها عقلًا– على ما اتفق عليه أهل السنة وثبت في الصحيح من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تَعَلَّمُوا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت» (أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر، كتاب "الفتن وأشراط الساعة"، باب "ذكر ابن صياد"، ج٤ ص٢٢٤٥ برقم ١٦٩)، ثم إنها لم تقع لموسى – عليه السلام– حين سألها فأجابه الله تعالى {لَن تَرَىٰنِي} [سورة الأعراف: جزء من الآية (١٤٣)]، فأولى أن لا تقع لغير سيدنا موسى – عليه السلام– ممن هو دونه.

وهل الحكم باستحالتها في الدنيا هو حكم عام أو لا؟

الجواب على هذا موقوف على البت في مسألة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج ببصره، فمن قال بأنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج ببصره يكون الحكم عنده بامتناع وقوع رؤية المؤمنين لله تعالى في الدنيا ليس

أَجَلُّ من الولاية»[١].

وعن دعوى إسقاط التكليف الشرعية عند نهاية طريق المعرفة يقول: «والحرية من رق العبودية باطلة، ومن رق النفوسية جائزة، والعبودية لا تسقط بحال»[٢].

وابن خفيف ههنا يصور معتقده ومعتقد الأئمة من أهل السنة في زمانه ومن قبله كما نص على هذا في مفتتح رسالته[٣]، والكلام واضح

عامًا بل هو خاص بغير النبي صلى الله عليه وسلم، ومن قال بعدم رؤيته صلى الله عليه وسلم لله تعالى ببصره بل رآه بقلبه يكون الحكم لديه بامتناع وقوع رؤية المؤمنين لله تعالى بالأبصار في الدنيا حكمًا عامًا. (انظر المسألة بتفصيلها في: شرح الشفا للقاضي عياض، شرحه ملا علي القاري، ج١ ص٤٢٢:٤٣٦ (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١ه)، وعمدة المريد شرح جوهرة التوحيد "وهو الشرح الكبير للناظم"، للإمام برهان الدين اللقاني ج٢ ص٧٥٧:٧٦٤ (ط دار النور المبين – عمان – الأردن، (ط١) سنة ٢٠١٦م، ت عبد المنان الإدريسي وجاد الله بسام صالح).

(١) رسالة الاعتقاد، لابن خفيف الشيرازي "ملحقة بكتاب سيرة الشيخ الكبير" ص٣٦٠.

(٢) المصدر السابق ص٣٦١.

(٣) المصدر السابق ص٣٤٣.

وصريح في أن معتقد أهل السنة هو نفي تلك الدعاوى التي فهمت من بعض أقوال أهل الشطح الذين فضلوا السكر على الصحو[1].

وهكذا يرتبط تفضيل الصحو على السكر عند ابن خفيف بمراعاته لضوابط العقل والشرع وذلك من خلال رفضه لتلك الدعاوى الباطلة التي تصادم المعقول والمنقول.

ولم يكن رفض ابن خفيف لتلك الدعاوى مجرد تنظير في الكتب بل إنه كان ينكر على أصحابها في الحال إذا واتته الفرصة، فها هو ينكر على من يزعم أن درجة الكمال في المعرفة إنما هي في عدم التمييز بين الموجود والمعدوم أي إن الكمال للعارف يكون في الفناء والسكر، يدلنا على هذا ما ذُكِرَ في سيرته من أنه كان يجلس مع جماعة من المشايخ فوُجِّه إلى شخص منهم سؤال فأخذ هذا الشخص يسوق كلامًا كثيرًا ثم أخذ يكرر هذه العبارة: «حينما يصل العارف إلى درجة الكمال لا يضره وجود

---

(١) وقد عد السراج الطوسي تلك الدعاوى ضمن الأغلاط التي وقع فيها المتنسبون للصوفية وجعلها من الأغلاط التي في الأصول التي نشأت من قلة إحكام الواقعين فيها لأصول الشريعة، وضعف دعائهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم بذلك، كما قال بعض المشايخ: إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول. (انظر: اللمع ص٥١٨، و٥٣٥ و٥٣٨ و٥٤١ و٥٤٣ و٥٤٤).

المعلوم، فبالنسبة إلى أحوال العارف يستوي الموجود والمعدوم»، وكان المشايخ حاضرين جميعًا ولم يعترض أحد.

يقول ابن خفيف: «فبدا في خاطري معارضة هذا الكلام، وأخذت أقول: يا سيدي إذا كنت تقول هذا المعنى على سبيل المكاشفة فهو مُسَلَّم لك ولا جدال فيه، وأما إذا كنت تقوله على سبيل الشريعة فيلزمك لهذا الكلام دليل من الكتاب أو السنة أو كلام السلف».

ويذكر ابن خفيف أن المشايخ كانوا يريدون منه أن يتجاوز عن كلام هذا الرجل ولا يستمر في النقاش معه، لكن الرجل طلب منهم أن يتركوا ابن خفيف يناقشه، ويذكر ابن خفيف أنه كلما أورد عليه دليلًا من الكتاب أو السنة كان هذا الرجل يقول له: «هذا الحديث وارد في حق الأمة، فيرد عليه ابن خفيف: ألست من الأمة؟».

ولما أعيت الحجة هذا الرجل قال لابن خفيف: «إن التجاوز عن الإخوان في المجادلة من قبيل الإحسان، فقال له ابن حفيف: لا يجوز التساهل في الشريعة، وحينئذٍ أُحْرِج الرجل وتصبب عرقًا من شدة حرجه»[1].

وهكذا ينكر الشيخ ابن خفيف على من يزعم أن الكمال لدى الصوفي يكمن في غيبته عن العقل والحس وعدم تمييزه بين الموجود والمعدوم، وهو ينبه على أن هذا المعنى لو كان على سبيل المكاشفة أي لو

(١) انظر: سيرة الشيخ الكبير ص١٣٤،١٣٥.

كان مجرد حال عابر فلا إشكال، أما أن يُدَّعى أن الكمال فيه فهذا مما يأباه الشرع ولا يوافق عليه، ولا خير في الطريق إذا كان بعيدًا عن الشرع، فضلًا عن أن يكون الكمال فيه.

وينكر الشيخ الكبير أشد الإنكار على أهل الحلول، فمما روي عنه أنه قال: «كنت قد جلست ذات يوم على ضفة نهر مع أبي الغريب[1] الذي كان يعتقد اعتقاد أهل الحلول، وكان ماء النهر شديد الصفاء، وهو يجري على الحصى المبعثر وحوله العشب والخضرة، قال: يا أبا عبد الله أهو ماء ذلك الذي يجري أم شيء آخر؟ قلت: هو ماء ذلك الذي يجري، فضحك، ففهمت ماذا يقول فقلت: اسكت لا بارك الله فيك»[2].

---

(١) هو أبو الغريب الأصفهاني، لقي المتقدمين من المشايخ، أقام بطرسوس برهة، ثم رجع إلى مكة، ثم رجع إلى شيراز واعتل فيها علة شديدة ظن من معه أنه يموت منها، فقال: «إن مت بشيراز فادفنوني في مقابر اليهود، فتعجبوا من قوله وسألوه عن ذلك، فقال: إني سألت الله عز وجل أن يكون موتي بطرسوس ولا أشك أن موتي هناك»، فبرأ من العلة، وخرج، وآخره مات بطرسوس، نُسب إليه القول بالحلول. (انظر: سير السلف الصالحين، لقوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني، ص١٢٩٨ (ط دار الراية للنشر والتوزيع – الرياض، بدون، ت كرم بن حلمي)، ونفحات الأنس ص٣٦٥،٣٦٦).

(٢) سيرة الشيخ الكبير ص٢٣٢.

وهكذا لما تفطن ابن خفيف أن أبا الغريب هذا قصد من قوله حلول الله تعالى في مخلوقاته فأنكر عليه ابن خفيف أشد الإنكار.

ولكننا إذ نجد هذا النكير الشديد من الشيخ الكبير على أصحاب الدعاوى التي تصادم العقل والشرع وخاصة أهل الحلول فإننا نقف متحيرين إزاء موقفه من الحلاج الذي اشتهر عنه القول بالحلول، حيث يُعَدُّ ابن خفيف من الصوفية القلائل الذين قبلوا الحلاج على حد ما قال السلمي: «والمشايخ في أمره مختلفون، رده أكثر المشايخ ونفوه وَأَبَوا أن يكون له قدم في التصوف، وقَبِلَه من جملتهم أبو العباس بن عطاء وأبو عبد الله محمد بن خفيف وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي[1] وأثنوا عليه وصححوا له حاله وحكوا عنه كلامه وجعلوه أحد المحققين، حتى قال محمد بن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني»[2].

---

(١) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمويه النصراباذي، شيخ خراسان في وقته نيسابوري الأصل والمنشأ والمولد، صحب أبا بكر الشبلي وأبا علي الروذباري وأبا محمد المرتعش وغيرهم من مشايخ الصوفية، أقام بنيسابور ثم خرج في آخر عمره إلى مكة وحج سنة ٣٣٦هـ، وأقام بالحرم مجاورًا ومات سنة ٣٦٧هـ، كتب الحديث الكثير ورواه. (انظر: طبقات الصوفية ص٣٦٢:٣٦٨، وسير أعلام النبلاء ج١٦ ص٢٦٣:٢٦٧، وتذكرة الأولياء ج٢ ص٥١٥:٥٢٥).

(٢) طبقات الصوفية ص٢٣٦، وانظر: سيرة الشيخ الكبير ص١٦٥، وأخبار الحلاج، لعلي بن أنجب الساعي البغدادي، ص٨٨ (ط دار الطليعة الجديدة – دمشق، (ط٢) سنة ١٩٩٧م، ت موفق فوزي الجبر).

ويؤكد هذا الذي ذكره السلمي ما جاء في "سيرة الشيخ الكبير" من أن ابن خفيف سئل: «ماذا تعتقد في الحسين بن منصور؟ قال: اعتقادي أنه رجل مُوَحِّد، فقال السائل: إنما أسألك هذا السؤال لأنهم قد كفروه، فقال: إن لم يكن ما رأيته منه توحيد فمن الموحد في الدنيا»[١].

أليس في هذا القبول للحلاج ما يتعارض مع كون ابن خفيف من مفضلي الصحو على السكر المراعين لضوابط العقل والشرع؟!

الحق أنه لا تعارض بين كون ابن خفيف من مفضلي الصحو على السكر المراعين لضوابط العقل والشرع وبين قبوله للحلاج، لأنه إذ يقبل الحلاج لا يقبله على أنه من أهل الحلول، فـ«قد سئل أبو عبد الله بن خفيف عن معنى هذه الأبيات:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

فقال الشيخ: على قائله لعنة الله، فقيل له: هذا شعر الحسين بن منصور، قال: إن كان هذا اعتقاده فهو كافر إلا أنه ربما يكون مُتَقَوَّلًا عليه»[٢].

فها نحن نجد أن ابن خفيف يحكم بلا تردد على من يعتقد ظاهر هذه الأبيات بالخروج من الملة، ويبين أنه لو كان هذا هو اعتقاد الحلاج

---

(١) سيرة الشيخ الكبير ص١٦٥.

(٢) تاريخ بغداد ج٨ ص٧٠٥، وتلبيس إبليس، لأبي الفرج ابن الجوزي، ص١٥٤ (ط دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

فسيسري عليه الحكم، لكنه يفسح المجال لاحتمالية كون هذا الكلام متقولًا على الحلاج، وهذا يعني أنه لم يسمعه منه.

وبهذا فلا منافاة بين تفضيل ابن خفيف لطريق الصحو على السكر وارتباطه بمراعاته لضوابط العقل والشرع وبين قبوله للحلاج، فهو يقبل الحلاج الذي رأى تمكن قلبه من شهود الحق، ولم يَرَ منه ولم يسمع ما يدل على كونه من أهل الحلول.

الخاتمة

بعد توفيق الله تعالى في إتمام هذا البحث أقوم بتسجيل أهم ما توصلتُ إليه من نتائج، وهي على النحو التالي:

١) الصحو والسكر من الأحوال التي تعرض للصوفي في طريقه إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وتدور تعريفات الصوفية للسكر على أنه حالة تعتري الصوفي بسبب وارد قوي من الله تعالى يأخذه من عالم الإحساس والعقل إلى الغيبة عنهما حيث تغلبه محبة الله تعالى فلا يشهد سواه، والصحو هو ارتفاع هذه الحالة بحيث تكون حالة غلبة محبة الله تعالى وعدم شهود سواه حاضرة لكن مع وجود الإحساس والعقل.

٢) السكر حال بين صحوين، صحو قبله ويسمى "صحو الغفلة"، وهو ليس من الأحوال في شيء بل هو حجاب بين العبد وربه، وصحو بعده ويسمى "الصحو الثاني" و"صحو الجمع" و"الصحو بعد المحو"، وهو حال يصير مقامًا.

٣) ارتبطت قضية تفضيل الصحو على السكر بقضية "الفناء في التوحيد"، تلك القضية التي ظهرت على الساحة الصوفية في أزهى عصور التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

٤) عُرِف طريق تفضيل الصحو على السكر باسم "طريق الجنيدين" نسبة لأبي القاسم الجنيد الذي رأى أن حال الفناء ليس هو نهاية المطاف بالنسبة للصوفي، بل هناك البقاء بعد الفناء، وقد ارتبط هذا

الطريق بمراعاة ضوابط العقل والشرع، وذلك في مقابل طريق تفضيل السكر على الصحو الذي عرف باسم "طريق الطيفوريين" نسبة لأبي يزيد طيفور البسطامي الذي رأى أصحابه أن الفناء هو نهاية المطاف، وارتبط هذا الطريق بظهور الشطح من أصحابه الذي قد يُفهم من ظاهره دعاوى تتصادم مع العقل والشرع من نحو الحلول والاتحاد.

٥) من أبرز رواد طريق تفضيل الصحو على السكر – غير الجنيد– الذين ظهر عندهم ارتباط هذا الطريق بمراعاة ضوابط العقل والشرع: الحارث بن أسد المحاسبي أستاذ الجنيد، ورويم البغدادي من أقران الجنيد، وممن جاءوا بعد الجنيد السراج الطوسي والسلمي والهجويري والقشيري، ثم حجة الإسلام الغزالي الذي أثر تصوفه بصوره واضحة في جل شيوخ الطرق الصوفية.

٦) لمفضلي الصحو على السكر أدلة على هذا الطريق، تدور حول كون تمكن قلب العبد من شهود الحق والوصول إلى مقام الولاية وما يقتضيه من مراعاة ضوابط العقل والشرع، لا يتحقق هذا إلا لمن تجاوز السكر إلى الصحو الذي بعده، أما مَنْ فَضَّل السكر على الصحو وتوهم أن عنده المنتهى فإن تصوفه في هذا الصدد معلول.

٧) من رواد طريق تفضيل الصحو على السكر الشيخ الكبير محمد بن خفيف الشيرازي (ت ٣٧١هـ)، وهو الصوفي الذي جمع بين

التصوف والعلم الشرعي، وأثنى عليه كبار العلماء من أهل الشريعة والحقيقة معًا.

٧) ظهر ارتباط تفضيل محمد بن خفيف الشيرازي للصحو على السكر بمراعاته لضوابط العقل والشرع من خلال:

- تأكيده على أهمية تأسيس المريد على علوم الشريعة المعقول منها والمنقول كحصن له من الوقوع في شطحات مفضلي السكر على الصحو.

- رفضه للدعاوى الباطلة من أمثال دعاوى الحلول والاتحاد وإسقاط التكاليف الشرعية ورؤية الأولياء لله تعالى في الدنيا، والتي قد تفهم من شطحات مفضلي السكر على الصحو وإنكاره عليهم في هذا الصدد.

فهرس المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، لأنا ماري شيمل (ط منشـورات الجمـل – كولونيـا "ألمانيـا"، بغـداد، (ط١) سـنة ٢٠٠٦م).

٣) إحياء علـوم الـدين، لأبي حامـد الغـزالي، ومعـه المغنـي عـن حمـل الأسفار في الأسفار في تخـريج مـا في الإحيـاء مـن الأخبـار، لـزين الدين العراقي (ط دار ابن حزم – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م).

٤) أخبار الحلاج، لعلي بن أنجب الساعي البغدادي (ط دار الطليعة الجديدة – دمشق، (ط٢) سنة ١٩٩٧م، ت موفق فوزي الجبر).

٥) آراء محمد بن خفيف الشيرازي الاعتقادية والصوفية جمعًا ودراسة في ضـوء عقيـدة أهـل السـنة والجماعـة، إعـداد: عبـد الله بـن عبيـد العتيبي، وهو بحث حصل به الباحث على درجة "الماجستير" في العقيدة والمذاهب المعاصرة من جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السـعودية، كليـة الشر-يعة وأصـول الـدين، سـنة ١٤٣٩ه، تحـت إشراف: أ.د/ عادل أمين فرج، الرقم الجامعي (٤٣٦٨١٥٣٧٠).

٦) أزهار الريـاض في أخبـار القـاضي عيـاض، لأبي العبـاس شـهاب الدين أحمد بن محمـد المقـري التلمسـاني (ط مطبعـة لجنـة التـأليف

والترجمة والنشر – القاهرة، ط سنة ١٣٥٨ه - ١٩٣٩م، ت مصطفى السقا وآخرون).

٧) أستاذ السائرين "الحارث بن أسد المحاسبي"، للدكتور عبد الحليم محمود (دار المعارف بمصر، ط سنة ١٩٩٢م).

٨) الأعلام، لخير الدين الزركلي (ط دار العلم للملايين، (ط١٥) سنة ٢٠٠٢م).

٩) الألواح العمادية "كلمة التصوف، اللمحات"، لشهاب الدين السهروردي (ط منشورات الجمل – بيروت - بغداد، (ط١) سنة ٢٠١٤م، ت الدكتور نجفقلي حبيبي).

١٠) الأنساب، لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ط مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد، (ط١) سنة ١٣٨٢ه - ١٩٦٢م، ت عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره).

١١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، لابن عجيبة الحسني (ط دار المعارف – القاهرة، بدون، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله).

١٢) تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي (ط دار الغرب الإسلامي، (ط١) سنة ٢٠٠٣م، ت د/ بشار عواد معروف).

١٣) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ت د/ بشار عواد معروف).

١٤) تاريخ دمشق، للحافظ ابن عساكر (ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ت عمرو بن غرامة العمراوي).

١٥) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، للحافظ ابن عساكر (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط٣) سنة ١٤٠٤هـ).

١٦) تذكرة الأولياء، لفريد الدين العطار (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط سنة ٢٠٠٩م، ترجمة وتقديم وتعليق: د/ منال اليمني عبد العزيز).

١٧) التصوف الثورة الروحية في الإسلام، للدكتور أبي العلا عفيفي (ط دار الشعب – بيروت، بدون)

١٨) التصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي، للدكتور مجدي محمد إبراهيم (ط مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م).

١٩) التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي (ط دار صادر – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢ه – ٢٠٠١م، تقديم: الدكتور يوحنا الجيب صادر).
٢٠) التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٣ه - ١٩٨٣م).
٢١) تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ط دار الرشيد – سوريا، (ط١) سنة ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م، ت محمد عوامة).
٢٢) تلبيس إبليس، لأبي الفرج الجوزي (ط دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١ه - ٢٠٠١م).
٢٣) تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلاني (ط مطبعة دائرة المعارف النظامية – الهند، (ط١) سنة ١٣٢٦ه).
٢٤) جامع الأصول في الأولياء، لأحمد النقشبندي الخالدي (ط مؤسسة الانتشار العربي – بيروت، (ط١) سنة ١٩٩٧م، ت أديب نصر الله).
٢٥) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١ه - ٢٠٠٠م، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص).

٢٦) جمل من أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى البلاذري (ط دار الفكر – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٧ه – ١٩٩٦م، ت سهيل زكار ورياض الزركلي).
٢٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني (ط السعادة بجوار محافظة مصر، ط سنة ١٣٩٤ه – ١٩٧٤م).
٢٨) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (ط مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد/ الهند، (ط٢) سنة ١٣٩٢ه – ١٩٧٢م، تحت مراقبة: د/ محمد عبد المعيد ضان).
٢٩) رسائل ابن عطاء الله السكندري "نصوص المكاتبات والمناجاة" (ط مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م، ت سعيد عبد الفتاح).
٣٠) رسائل الجنيد، للإمام أبي القاسم الجنيد (ط برعي وجداي – القاهرة، ط سنة ١٩٨٨م، ت د/ علي حسن عبد القادر).
٣١) الرسالة القشرية، للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري (ط دار المعارف – القاهرة، ت الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف).
٣٢) روضة التعريف بالحب الشريف، للسان الدين ابن الخطيب (ط دار الثقافة، (ط١) سنة ١٩٧٠م، ت محمدالكتاني).

٣٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين المقريزي (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٨ه – ١٩٩٧م، ت محمد عبد القادر عطا).
٣٤) سنن الإمام أبي داود (ط دار الرسالة العالمية، (ط١) سنة ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م، ت شعيب الأرنؤوط – محمد كامل قره بللي).
٣٥) سنن الإمام الترمذي (ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط سنة ١٩٩٨م، ت بشار عواد معروف).
٣٦) سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي (ط مؤسسة الرسالة، (ط٣) سنة ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م، ت مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط).
٣٧) سير السلف الصالحين، لقوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني (ط دار الراية للنشر والتوزيع – الرياض، بدون، ت كرم بن حلمي)، ونفحات الأنس ص٣٦٥،٣٦٦).
٣٨) سيرة الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي (ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية "تحت إشراف مجمع البحوث الإسلامية" – القاهرة، ط سنة ١٣٩٧ه – ١٩٧٧م، ترجمها إلى الفارسية: ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازي، أعاد ترجمتها إلى العربية لفقد النص العربي وترجم مقدمتها من التركية: د/ إبراهيم الدسوقي شتا).

٣٩) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، للأستاذ الشيخ محمد بن محمد مخلوف (ط دار الكتب العلمية – لبنان، (ط١) سنة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، علق عليه: عبد المجيد خيالي).
٤٠) شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار، لمعين الدين أبي القاسم جنيد الشيرازي (ط مطبعة المجلس – طهران، ط سنة ١٣٦٨هـ، ت محمد قزويني وعباس إقبال).
٤١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي (ط دار ابن كثير – دمشق – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، ت محمود الأرناؤوط).
٤٢) شرح الشفا للقاضي عياض، شرحه ملا علي القاري (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢١هـ).
٤٣) شرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني (ط عالم الكتب – بيروت، (ط٢) سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ت د/ عبد الرحمن عميرة).
٤٤) شرح المواقف، المواقف لعضد الدين الإيجي والشرح للسيد الشريف الجرجاني (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م).
٤٥) شطحات الصوفية، للدكتور عبد الرحمن بدوي (ط وكالة المطبوعات – الكويت، بدون).

٤٦) شرح عين العلم وزين الحلم، لملا علي القاري (ط إدراة الطباعة المنيرية – مصر، ط سنة ١٣٥١ه).
٤٧) صحيح الإمام البخاري (ط دار طوق النجاة "مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي"، (ط١) سنة ١٤٢٢ه، ت محمد زهير بن ناصر الناصر).
٤٨) صحيح الإمام مسلم (ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون، ت محمد فؤاد عبد الباقي).
٤٩) صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور كامل مصطفى الشيبي (ط دار المناهل – بيروت، (١) سنة ١٤١٨ه – ١٩٩٧م).
٥٠) طبقات الأولياء، لسراج الدين ابن الملقن الشافعي المصري (ط مكتبة الخانجي – بالقاهرة، (ط٢) سنة ١٤١٥ه – ١٩٩٤م، ت نور الدين شريبه).
٥١) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي (ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط٢) سنة ١٤١٣ه، ت د/ محمود محمد الطناحي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو).
٥٢) طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبي عبد الرحمن السلمي (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤١٩ه – ١٩٩٨م، ت مصطفى عبد القادر عطا).

٥٣) الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، للدكتور عامر النجار (ط دار المعارف – القاهرة، (ط٥)، بدون).

٥٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (دار الفكر – بيروت، (ط٢) سنة ١٤٠٨ه – ١٩٨٨م، ت خليل شحادة).

٥٥) عمدة المريد شرح جوهرة التوحيد "وهو الشرح الكبير للناظم"، للإمام برهان الدين اللقاني (ط دار النور المبين – عمان – الأردن، (ط١) سنة ٢٠١٦م، ت عبد المنان الإدريسي وجاد الله بسام صالح).

٥٦) عوارف المعارف، لشهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي (ط مكتبة الإيمان – القاهرة، (ط١) سنة ١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م، ت الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، والأستاذ الدكتور محمود بن الشريف).

٥٧) غاية النهاية في طبقات القراء، لأبي الخير شمس الدين ابن الجزري (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٧ه – ٢٠٠٦م، طبعة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة ١٩٣٢م ج. برجستراسر).

٥٨) الفتوحات المكية، لمحيي الدين ابن عربي (ط دار الكتب العلمية – بيروت، (ط١) سنة ١٤٢٠ه – ١٩٩٩م، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين).
٥٩) فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ط مؤسسة الرسالة – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٣ه – ١٩٨٣م، ت د/ وصي الله محمد عباس).
٦٠) الفوائد البهية في تراجم الحنفية، لأبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي (ط مطبعة دار السعادة بجوار محافظة مصر، (ط١) سنة ١٣٢٤ه، عنى بتصحيحه وتعليق بعض الزوائد عليه: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني).
٦١) في التصوف الإسلامي وتاريخه، لرينولد ألن نيكلسون (ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ط سنة ١٣٦٦ه – ١٩٤٧م، ترجمة د/ أبو العلا عفيفي).
٦٢) قواعد التصوف، للشيخ أحمد بن أحمد البرنسي المغربي المشهور بـ"زروق" (ط دار البيروتي – دمشق، (ط١) سنة ١٤٢٤ه – ٢٠٠٤م، ضبطه وعلق عليه: محمود بيروتي).
٦٣) قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق، لجمال الدين محمد أبي المواهب الشاذلي (ط المكتبة الأزهرية للتراث –

القاهرة، ط سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، راجعه وضبطه وصححه: محمد شحاتة إبراهيم).
٦٤) كشف المحجوب، لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري (ط المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠٠٧، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل).
٦٥) الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ط مؤسسة الرسالة – بيروت، ت عدنان درويش – محمد المصري).
٦٦) لسان العرب، لابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ط دار صادر – بيروت، (ط٣) سنة ١٤١٤هـ).
٦٧) اللمع، لأبي نصر السراج الطوسي (ط مكتبة الثقافة الدينية، ط سنة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ت الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود).
٦٨) مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السلمي، "درجات المعاملات" (ط مركز نشر دانشگاهي، تهران – إيران، (ط١) سنة١٩٩٠م، ت أحمد طاهر عراقي).
٦٩) مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السلمي، "ذكر آداب الصوفية" (ط مؤسسه پژوهشي حكمت وفلسفه إيران، تهران – إيران، ومؤسسه مطالعات إسلامي دانشگاه آزاد برلين، برلين – آلمان، (ط١) سنة ٢٠٠٩م، ت نصر الله جوادي ومحمد سوري).

٧٠) محمد بن خفيف الشيرازي (ت ٣٧١هـ) وآراؤه الصوفية والكلامية دراسة تحليلية نقدية، إعداد: نبيل جمال المرسي أبو العنين، وهو بحث حصل به الباحث على درجة "الماجستير" في الفلسفة من جامعة المنصورة، كلية الآداب، سنة ٢٠٢٠م، تحت إشراف: أ.د/ إبراهيم إبراهيم ياسين.
٧١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط٣) سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ت محمد المعتصم بالله البغدادي).
٧٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي، للدكتور أبو الوفا التفتازاني (ط دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة، (٢) سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).
٧٣) مسند الإمام أحمد (ط مؤسسة الرسالة، (ط١) سنة ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ت شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون).
٧٤) معجم اصطلاحات الصوفية، لعبد الرزاق الكاشاني (ط دار المنار، (ط١) سنة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، ت د/ عبد العال شاهين).
٧٥) معجم البدان، لياقوت الحموي (ط دار صادر، بيروت، (ط٢) سنة ١٩٩٥م).
٧٦) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي (ط دار الفكر، ط سنة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ت عبد السلام محمد هارون).

٧٧) المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار) (ط دار الدعوة، بدون).
٧٨) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ط دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، (ط١) سنة ١٤١٢هـ، ت صفوان عدنان الداودي).
٧٩) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، لشمس الدين السخاوي (ط دار الكتاب العربي – بيروت، (ط١) سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ت محمد عثمان الخشت).
٨٠) منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (ط دار الكتب العلمية – بيروت، بدون).
٨١) الموسوعة الصوفية، للدكتور عبد المنعم الحفني (ط مكتبة مدبولي – القاهرة، (ط٥) سنة ٢٠٠٦م).
٨٢) موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، للدكتور رفيق العجم (ط مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، (ط١) سنة ١٩٩٩م).
٨٣) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي (طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، ط سنة ١٩٥١م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان).
٨٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (ط دار صادر – بيروت، ت إحسان عباس).